

الأسلوب الكنائى

نشأته - تطوره - بلاغته

الدكتور

محمود السيد شيخون

عميد كلية الدراسات الإسلامية

جامعة الأزهر

الطبعة الثانية

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار الهدى للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

معنى كلمة * كتابسة *

الكتابة في اللغة : مصدر كنى يكتى ، فيكون ياتى اللام ، أو كنى يكتو ، فيكون واوى اللام^(١) .

والمعنى العام لهذا المصطلح البلاغى : " هو أن تتكلم بشيء ، وتريد غيره"^(٢) .

وقد وردت^(٣) لها صور بهذا المعنى فى القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿وَأَحِلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾^(٤) فكلمة "الرفث" لم يرد بها لفظها ، أو المعنى الظاهر لهذا اللفظ ، ومثلها لفظا "الفائط ، والملاسة" فى قوله تعالى : ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْفَائِطُ ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(٥)

كما وردت فى الحديث النبوى ألفاظ بهذا المعنى ، أى الدلالة على مستور خفى توحى به اللفظة ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لغلام أسود اسمه أبجشة كان يحدو بالنساء ركابهن فى بعض أسفاره ، ويرتجز بنسب الشعر والرجز وراءهن "رويدك سوقك بالقوارير" فكلمة "القوارير" لم يرد بها لفظها أو المعنى الظاهر لهذا اللفظ ، وإنما

(١) انظر لسان العرب مادة : كنى ، ٢٠ : ٩٨ ، والقاموس المحيط : ٤ : ٣٨٦ .

(٢) انظر مختار الصحاح مادة كنى ص ٥٩١ .

(٣) أى الكتابة .

(٤) البقرة : ١٨٧ .

(٥) النساء : ٤٣ .

أريد بها "النساء" .

كما وردت لفظة الكناية ، أو ما يشتق منها بهذا المعنى فى شعر الشعراء ، فقال أبو
زياد الكلابي :

وإنى لأكنى عن قنور بغيرها وأعرب أحيانا بها فأصارع^(١)

وقال ابن برى :

وقد أرسلت فى السر أن قد فضحتنى وقد نحت باسمى فى النسيب وما تكنى

(١) قنور : اسم امرأة .

مقدمة

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع سنته ، واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

أما بعد

فهذه دراسات حول الأسلوب الكنائسي قد دفعني إلى القيام بها أربعة أمور هي :

- ١- الرغبة في التعرف على تاريخ هذا الأسلوب ، كيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟
- ٢- معرفة الشخصيات التي أسهمت في اكتشاف هذا الأسلوب ، وكشفت عن جماله وأبانت بلاغته .
- ٣- الكشف عن البيئات التي عاش فيها هذا الأسلوب ، والملفات التي احتوته .
- ٤- الكشف عن أسرار البلاغية ، ولطائفه الأدبية .

وبعد طول معايشة لكعب البلاغة والأدب قديمها ، وحديثها ، تمكنت من أن ألم بأطراف هذا الأسلوب المتشعبة ، وأن أزيح الستار عن بعض أسرارهِ ولطائفهِ .

وقد كان سبيلي في هذا البحث أنني سلكت في تمهيد ، وخمسة فصول ، وخاتمة . أما التمهيد فقد كشفت فيه عن معنى كلمة "كناية"

وأما الفصول ، فقد تحدثت في الفصل الأول منها عن الكناية منذ أن كانت صورة في خيال الشعراء ، حتى صارت فناً من فنون البلاغة ، مستعرضاً في هذا الفصل جهود علماء البلاغة مناقشاً آرائهم ، كاشفاً النقاب عن مناهجهم ، مسحلاً ملاحظاتي على دراستهم .

وتحدثت في الفصل الثاني عن الأسلوب الكنائسي في العصر الحديث متتبّعاً بالبحث والدراسة علماء البلاغة الذين عنوا بهذا الأسلوب ، مزيجاً الستار عن جهودهم ، مسحلاً

ملاحظاتي على دراستهم .

وتحدثت في الفصل الثالث عن صور الأسلوب الكثنائي التي تبلورت عنها جهود علماء البلاغة في نهاية المطاف ، فتناولت هذه الصور بطريقة سهلة بعيدة عن الخلافات التي أطاحت ببيحتها وروائها .

وفي الفصل الرابع تحدثت عن الأثر البلاغي للأسلوب الكثنائي ، فكشفت القناع عن بعض ماينطوى عليه هذا الأسلوب من الأسرار البلاغية ، واللطائف الأدبية .

وفي الفصل الخامس والأخير تحدثت عن الأسلوب الكثنائي في القرآن الكريم ، فأعطت اللثام عن خصائصه التي كانت السر في عظمته ، والسبب في جماله وخلوده .

وأما الخاتمة فقد أثبت فيها النتائج التي انتهت إليها في بحثي هذا . والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهه الكريم ، عادمة للغة القرآن العظيم . إنه سميع مجيب ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

الدكتور

محمود السيد شيخون

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر

الفصل الأول الكناية فى القديم

لقد عرف القدماء من الشعراء الكناية صورة فى خيالهم ، توضح الفكرة، وتزين الأسلوب ، ولم يعرفوها لو أنها بلاغيا محددًا واضح المعالم بين السمات

فكنى امرؤ القيس بالبيضة عن المرأة فى قوله:

وبيضة خلد لا يرام خيالها
تمتعت من لحو بها غير معجل

وكنى النابغة الذبياني عن طول العنق وتمام الخلق بقوله :

إذا ارتفعت خائف الجبان رعائها
ومن يتعلق حيث علق يفرق^(١)

وكنى عنزة العيسى بالشاة جاريتته فى قوله :

يا شاة ما تنص لمن حلت له
حرمت على وليتها لم تحرم

وكنى أوس بن حجر عن الحرب بقوله:

حتى يلف تخيلهم ، ويوتهم
لمب كناية الحصان الأشقر

وكنى زهير عن طول عنق الفرس وقوائمه بقوله:

وملحمتنا ما إن ينال قفاله
ولا قدماه الأرض إلا أنامله^(٢)

وكنى الأعشى عن رقة الخضر وتمام الخلق بقوله:

صفر الوشاح ، وملء الدرع حرعبة
إذا تأتي يكاد الخضر ينحزل^(٣)

(١) ارتفعت : ليست الرعاش وهو القوط .

(٢) ملحمتنا : يريد الذى يلحم نعلهم .

(٣) صفر الوشاح: ضحمة - الفرعية: الرخصة اللينة الحسننة الخلق - تأتي: ترفق أو تهيناً للقيام -

ينحزل : ينثى أو ينقطع .

وسار الإسلاميون من الشعراء في نفس الطريق التي سار فيها القدماء إلا أنهم أكثرها من الكناية، وتأثروا بصورتها في القرآن الكريم.

الكناية والدراسات البيانية

إن أول من تكلم عن الكناية كلون بلاغي -فيما أعلم- هو أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وقد فهم منها أنها كل ما فهم من الكلام ومن السياق، من غير أن يذكر اسمها صريحاً في العبارة^(١). ثم كشف النقاب عن دلالة الكناية على معناها، وبين أن هذه الدلالة عقلية، وليست لغوية، أو وضعية وفي هذا يقول: "وهذا اللفظ في العبارة لم يوضع في الأصل عند أصحاب اللغة للدلالة على هذا المعنى، وإنما فهمت تلك الدلالة من سياق الكلام بشئ من الروية وإعمال العقل"^(٢).

ثم أورد لنا شواهد كثيرة منها قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ، وَجَرِينْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيعَةٍ﴾^(٣) ثم وضع الكناية في الآية الكريمة بقوله: إنه رجوع من المخاطبة إلى الكناية، والعرب تفعل ذلك، ومنها قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٤) ومنها قوله تعالى: ﴿كُلْ مِنْ عَلَيْهَا﴾^(٥) كناية عن الأرض، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾^(٦) كناية عن الشمس.

وذكر من شواهدنا أيضاً قول النابغة الذبياني:

يا دارمية بالعلياء قالسند تقوت وطلال عليها سالف الأمد

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ١٣٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٦.

(٣) يونس: ٢٢.

(٤) الفاتحة: (٤، ١).

(٥) الرحمن: ٢٦.

(٦) ص: ٣٢.

وإن من يتأمل هذه الشواهد التي أوردها أبو عبيدة واستشهد بها على الكناية كما يراها يدرك أن بعضها يطلق على الكناية في اصطلاح المتأخرين من علماء البلاغة، وبعضها يطلق على ما يسمى عندهم بالالتفات، ومن هنا يتضح لنا أن مفهوم الكناية عند أبي عبيدة عام ، فهو ستر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلي .

الجاحظ والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد أبي عبيدة "أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ" المتوفى سنة ٢٥٥هـ. فأشار إلى أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والكشف . ثم أورد للكناية بعض الشواهد منها قول أبي سريح بن الحارث الكندي: "الحدة كناية عن الجهل" وقول أبي عبيدة : "العارضة كناية عن البذاء"^(١) ثم قال: " وإذا قالوا فلان مقتصد فذلك كناية عن البخل"^(٢) .

ويلاحظ على الجاحظ أنه لم يضع تعريفا للكناية، وإنما كان حديثه عنها أنه رأى صورة كلامية- كما هي عادته- استتر فيها اللفظ الأصلي الموضوع للمعنى، وظهر لفظ غيره ، فأطلق عليها الكناية والتعريض. كما يلاحظ عليه أيضا أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض والذي يفهم من شواهد التي أوردها للكناية وتعليقه عليها أنه لا يرى فرقا بينهما ، وأن الاسمين عنده مرادفان.

المبرد والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد الجاحظ "المبرد" المتوفى سنة ٢٨٥هـ في كتابه "الكامل"^(٣) فقسمها إلى ثلاثة أقسام:-

١- القسم الأول : ما كان للتفخيم والتعظيم ومنه اشتقت الكنية، وهو أن يعظم الرجل أن

(١) البذاء : كسحاب القدرة على الكلام .

(٢) البيان والتبيين ص ٢٦٣ .

(٣) انظر الكامل جـ ٢ ص ٦ .

يدعى باسمه، ووقعت في الكلام على ضربين:

(أ) وقعت في الصبي على جهة التفاضل بأن يكون له والد، فيدعى بوالده كناية عن اسمه.

(ب) وفي الكبير ينادى باسم ولده صيانة لاسمه.

٢- القسم الثاني: ما كان للتغطية والتعمية كقول ذي الرمة:

أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم

٣- القسم الثالث: الرغبة عن اللفظ الحسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ يَشْهَدَتْ عَلَيْنَا﴾^(١) أى لفروجهم ، وقوله تعالى عن المسيح ابن مريم وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾^(٢) كناية عن قضاء الحاجة، وقوله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾^(٣) كناية عن الجماع.

ويلاحظ على المبرد أنه لم يضع تعريفا للكناية، ويلاحظ عليه أيضاً أنه لم يفرق بينها وبين التعريض، كما يلاحظ عليه أن تقسيمه الكناية إلى الأقسام الثلاثة السالفة الذكر ليس جيداً ، لأنه لا يرجع في تقسيم الجنس إلى أنواعه، وإنما هذه الأقسام في الحقيقة ضروب لما توديه الكناية من فائدة في صناعة الكلام.

ابن المعتز والكناية:

ثم تحدث عن الكناية بعد المبرد "أمير المؤمنين عبد الله بن المعتز" المتوفى سنة ٢٩٦هـ في كتابه "البدیع". فعقد لها فصلاً خاصاً تحت اسم "الكناية والتعريض"، وأورد لها كثيراً من الشواهد الشعرية منها قول الشاعر في حجام:

(١) فصلت : ٢١ .

(٢) المائدة : ٧٥ .

(٣) البقرة : ١٨٧ .

أبوك أب مازال للناس موجعا لأهناقمهم نقرأكم ينقر الصقر
إذا عوج الكتاب يوما سطورهم فليس بمعوج له أبدا سطر

وابن المعتز يعد كلا من الكناية والتعريض فنا من محسنات الكلام.

ويلاحظ على ابن المعتز أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض؛ بل كانت شواهدهما عنده مختلطة . ولعله لا يرى فرقا بينهما شأنه في ذلك شأن من سبقه من العلماء، كما يلاحظ عليه أنه لم يضع تعريفا لأحدهما . ومن هنا يتضح لنا أن ابن المعتز لم يقيم للكناية جدية سوى الإكثار من الشواهد الشعرية.

قدامة بن جعفر والكناية.

ثم تحدث عن الكناية "قدامة بن جعفر" المتوفى سنة ٣٣٧هـ تحت اسم "اتتلاف اللفظ والمعنى" وسمّاها "الإرداف" وعرفها بقوله: "أن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى؛ بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع"^(١) .

ثم ساق لها بعض الشواهد الشعرية منها قول الشاعر:

بعيدة مهوى القرط إما لنوغل أبوها وإما عبد شمس وماشم

وقدامة وإن لم يتكلم عن الكناية، ولم يذكرها في كتابه، بل تكلم عن صورة قريبة منها سماها "الإرداف" إلا أن تعريفه لتلك الصورة البلاغية قريب جدا من مفهوم الكناية عند المتأخرين من علماء البلاغة، وإن بعض الشواهد التي ساقها للإرداف تصلح أن تكون من شواهد الكناية عند المتأخرين من علماء البلاغة، بل إن بعضهم جعلها من شواهد الكناية .

(١) نقد الشعر ص ٨٨ ، ٨٩ .

أبو هلال العسكري والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد قدامة "أبو هلال العسكري" المتوفى سنة ٣٩٥هـ في كتابه "الصناعتين" تحت اسم "الكناية والتعريض" فعرّفها بقوله: "وهي أن يكتئب عن الشيء ويعرض به، ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء" (١) ثم استشهد لها من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (٢) فالغائط كناية عن قضاء الحاجة وملامسة النساء كناية عن الجماع، ومن النثر بما فعله العنبري إذ بحث إلى قومه.

بصرة شوك، وصرة رمل، وحنظلة، يريد جاء تكلم بنو حنظلة في عدد كثير كثيرة الرمل والشوك ومن الشعر بقول الشاعر في حجام:
أيوك أب مازال للناس موجعا لأعناقهم تقرا كما ينقر الصقر
إذا عوج الكتاب يوما سطورهم فليس بمعوج له أبدا سطر

ويلاحظ على أبي هلال في دراسته للكناية أنه ترسم خطأ ابن المعتز، فنقل تسميته كما هي، ولم يفرق بين التعريض والكناية على نحو ما فعل ابن المعتز، كما أنه استشهد ببعض شواهد.

ابن رشيق القيرواني والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد أبي هلال "ابن رشيق القيرواني" المتوفى سنة ٤٦٣هـ في كتابه "العمدة" تحت اسم التورية فقال (٣): "وأما التورية في أشعار العرب، فإنما هي كناية بشجرة، أو بيضة، أو ناقة، أو مهرة، أو ماشاء كل ذلك كقول المسيب بن علس:

(١) الصناعتين ص ١٨٥ .

(٢) النساء : ٤٣ .

(٣) العمدة ج ١ ص ٢١٥ .

لينصره السدر والأتاب

دعا شجر الأرض داعيهم

فكنى بالشجر عن الناس حيث يقال في المنثور أيضا: جاء فلان بالشوك والشجر،
إذا جاء بجيش عظيم.

وقول عنزة :

حرمت على وليتها لم تحرم

ياشاة ما تنص لمن حلت له

وإنما ذكر امرأة أبيه، وكان يهواها، وقيل: بل كانت جاريتة، فلذلك حرمها على
نفسه.

وكقول امرئ القيس :

تمتعت من لحو بها غير معجل

وبيضه حذر لا يرام خباؤها

فكنى بالبيضة عن المرأة ، وقوله تعالى : ﴿إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً﴾^(١)
حيث كنى بالنعجة عن المرأة.

فما سبق يستبين لنا أن ابن رشيق يريد من الكناية معنى عاما هو سر المعنى
وإخفاؤه وراء لفظ غير لفظه .

ويؤخذ عليه أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض شأنه في ذلك شأن غيره من
العلماء الذين سبقوه.

ومن هنا نستطيع أن نقول في اطمئنان إن ابن رشيق لم يقدم للأسلوب الكناي
جديدا يذكر فلقد ترسم خطأ من سبقه من العلماء، واختلف معهم في التسمية فقط.

ابن سنان الخفاجي والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد ذلك " ابن سنان الخفاجي " المتوفى سنة ٤٦٦ هـ في

(١) من : ٢٣ .

كتابه "سر الفصاحة" تحت "تأليف الكلام، وجرىانه على العرف العربى الصحيح" فقال^(١) "ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح"

ثم أورد لها كثيرا من الشواهد، وصف بعضها بالحسن دون تعليل، ووصف البعض الآخر بالقبح مبينا السبب فى ذلك.

فمن الشواهد التى أوردتها ووصفها بالحسن والجودة قول امرئ القيس:
فصرنا إلى الحسنى ودق كلامنا ورضت فقلت صعبة أى إذلال

ثم كشف عن الكناية فى البيت ووصفها بالحسن فقال: "لأنه كنى عن المياضعة بأحسن ما يكون من العبارة".

وقول أبى الطيب:

تدعى ما ادعيت من ألم الشوق إلى إليها والشوق حيث التحول

ثم علق على البيت بقوله "لأنه كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية ومن الشواهد التى أوردتها للكناية ووصفها بالقبح والرداءة قول أبى الطيب:
إنى على شغفى بما فى حمريها لأعف عما فى سراويلاتها

وقول الآخر:

تعطين من رحليك ما تعطى الألف من الرغاب^(٢)

ثم بين الكناية فى البيت بقوله: "يكنى بهذا عن امتلاء رجليها ولينهما".

وقول الرضى يرنى والدته:

كان ارتكاضى فى حشاك مسيبا ركض الغليل عليك فى أحشائى

(١) سرا الفصاحه ص ١٩٢ .

(٢) الرغاب : الأرض اللينة الواسعة الدمنة .

ثم يعلق على البيت بقوله: " يعنى أن ارتكاضه وهو جنين فى بطنها كان سببا لارتكاض غلبه فى أحشائه لموتها".

ثم يحلل قبح البيتين فيقول: " لأنك إذا تأملت هذين البيتين وجدتتهما يجريان من بيت امرئ القيس بجرى الضد، وذلك أن امرأ القيس عبر عما يجب أن يكنى عنه من المباشرة، فكنى بأحسن كناية، وهذان عبرا عما لا يجب أن يكنى عنه فأتيا بالفاظ يجب أن يكنى عنها"^(١)

إن دراسة الخفاجى للكناية دراسة ممتاز بالعمق والتحليل، فقد جعل الكناية أصلا من أصول الفصاحة، وشرطا من شروط البلاغة، وهذا الاتجاه لم يسبقه إليه أحد من علماء البلاغة كما أنه لم يكف بإرسال الشواهد، وبيان موضع الكناية منها كما فعل غيره من العلماء الذين سبقوه ، بل تعدى هذا إلى النقد، فكشف عن الحسن الجيد من الكناية ، وأماط اللثام عن القبيح الرديئ منها، مبينا السبب فى ذلك، وهذا أيضا اتجاه قد انفرد به دون غيره ممن سبقه من العلماء، وهذه الدراسة التحليلية النقدية الفريدة إن دلت على شئ فإنما تدل على ما يمتاز به الخفاجى من صفاء الذهن، ورهافة الحس، ودقة الشعور والخبرة الواسعة بأساليب اللغة والقدرة على تمييز جيد الكلام من رديئه، وغشه من سمينه إلا أنه يؤخذ عليه أنه لم يضع تعريفا للكناية، كما أنه لم يكشف عن فائدها وأثرها فى الأسلوب ، ولم يفرف بينها وبين التعريض، شأنه فى ذلك شأن من سبقه من العلماء.

عبد القاهر الجرجاني والكناية.

ثم تحدث عن الكناية " عبد القاهر الجرجاني" المتوفى سنة ٤٧١هـ فأماط اللثام عن المراد بها فقال:

" والمراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يبين إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود، فيومىء به إليه، ويجعله دليلا عليه، كقولهم: هو طويل النجاد، يريدون طويل القامة، وكثير الرماد يعنون

(١) سر الفصاحة ص ١٩٢-١٩٥ .

كثير القرى" (١) .

والتأمل في هذا النص يدرك أن عبد القاهر أراد أن يبين معناها، ويضع لها تعريفاً، ويكشف عن مغزاها فأبان أنها إرادة المعنى بغير لفظه الخاص به ، ولكن يذكر معنى آخر من شأنه أن يردف المعنى المراد في الوجود، وأن يكون إذ كان أنشأ ترى أن القائمة إذا طالت طال النجاد ، وإذا كثرت القرى كثرت رماد القدر.

ثم وازن عبد القاهر بين الإفصاح والكتابة، ورجح الأخيرة على الإفصاح فقال: "قد أجمع الجميع على أن الكتابة أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح...إلا أن ذلك وإن كان على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يقلقل الفكر إلى زواياه، وحتى لا يبقى فيه موضع ومكان مسألة" (٢). ثم أخذ يدلل على مزيتها على التصريح ويتخيل أن سائلا يسأله، هل زيادة الكتابة على التصريح في ذات المعنى أو في إثباته؟ فقال (٣) : ليس المعنى إذا قلنا: إن الكتابة أبلغ من التصريح أنك حين كنت عن المعنى زدت في ذاته ؛ بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وأكد وأشد ، فليست المزية في قولهم: جم الرماذ أنه دل على قرى أكثر ، بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ ، وأوجبه إيجاباً هو أشد ، وادعيته دعوى بها أنطق ، وبصفتها أوثق .

ويفهم من كلام عبد القاهر هذا أن مزية الكتابة على التصريح راجعة إلى إثبات المعنى لا إلى زيادته، إذ الكتابة فيها إثبات للمعنى بالدليل والبرهان بخلاف التصريح فإن فيه إثبات المعنى من غير دليل ولا برهان ، ومما لاشك فيه أن إثبات المعنى مصحوباً بالدليل أبلغ من إثباته عارياً من الدليل.

ثم بين أن الكتابة إما أن تكون واقعة في نفس الصفة المراد إثباتها، وإما أن تكون لإثبات الصفة، ومثل للأولى بقول زياد الأعجم :

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٥٨ .

إن السماحة والمروءة والندى في قمة ضربت على ابن الخشرج

ثم علق عليه بقوله: " فإن الشاعر أراد أن يثبت هذه المعاني والأوصاف خاللا للممدوح ، وضرائب فيه " فترك أن يصرح فيقول: " إن السماحة والمروءة والندى لجموعة في ابن الخشرج ، أو مقصورة عليه ، أو مختصة به ، وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها ، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويع ، فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه ، وإشارة إليه ، فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة ، ويظهر فيه ما أنت ترى من الفحاحه ، ولو أنه أسقط هذه الوساطة* من البين ، لما كان إلا كلاما غفلا وحديثا ساذجا."

ومثل للثانية بقوله : " المجد بين ثوبيه " " والكرم بين يديه " وعلق عليه بقوله : " لأن قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلها في ثوبه الذي يلبس " ثم مثل لها أيضا بقول أبي نولس :

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

ثم علق على البيت بقوله : " كل ذلك استعملت فيه الكناية لإثبات الصفة للممدوح بإثباتها في المكان الذي يكون فيه ، وإلى لزومها له بلزوم الموضع الذي يحله."

ثم اشترط عبد القاهر لحسن تصوير الكناية وجمالها أن يوجد فيها التناسب بين ألفاظها ومعانيها ، ثم كشف عن مكان الكناية ، وجعل اللفظ كما جعل الفصاحة فيها عقلية أو معنوية لا لفظية وذلك بتقسيمه الكلام الفصيح إلى قسمين:

١ - قسم تعزى المزية فيه إلى اللفظ .

٢ - قسم تعزى فيه المزية إلى المعنى .

وجعل الكناية من القسم الأول .

وحاصل كلام عبد القاهر في هذا المعنى ، أن المعنى الكسائي لا يعرف من لفظ الكلام وإنما يعرف بالنظر اللطيف ، والحس الدقيق ، وذلك مرجعه العقل .

ولذلك فإننا نراه يدلل على ذلك فيقول : " ألا ترى أنك لما تظفرت إلى قلوبهم :
" هو كثير رماد القدر " وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة لم تعرف ذلك
من اللفظ ، ولكنك عرفت من رجوعك إلى نفسك . وقولك : إنه كلام قد جاء عنهم
في المدح ، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد ، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدللوا بكثرة الرماد
على أنه تنصب القدور الكثيرة ، ويطبخ فيها للقرى والضيافة ، فإذا زادت كثرة الطبخ في
القدور ، كثرت إحراق الحطب ، وإذا كثرت إحراق الحطب تحتها ، كثرت الرماد لاحتالة .

ثم كشف عبد القاهر عن بلاغة الكناية وحسن تصويرها ، وبين أنها راجعة إلى
طريق إثبات المعنى لا المعنى نفسه ، فقال : " فينبغي أن ليس المزايا لهذه الأجناس - الكناية
والاستعارة والتمثيل والجاز - على الكلام المزك على ظاهره والمبالغة التي تحسها في
أنفس المعاني التي يقصد المتكلم بغيره إليها ، ولكنها في طريق إثباتها لها وتعزيزها إياها^(١) "

ويقول في موضع آخر : " فإنهم^(٢) لا يعنون المعاني التي يقصد المتكلم بغيره إليها
كالقرى والشجاعة والترف ... وإنما يعنون إثباتها لما ثبتت له ، ويحتر بها عنه ، فإذا
جعلوا لها مزية على التصريح ، لم يجعلوا تلك المزية في المعنى المكنى عنه ، ولكن في إثباته
الذي ثبت له . وذلك أنا نعلم أن المعاني التي يقصد الخبر بها لا تتغير في أنفسها ، بأن
يكني عنها بمعان سواها وترك الألفاظ التي هي لها في اللغة ، وإنما كان بإثباتها شاهدها
ودليلها ، وما كان علم على وجودها .

ومما لاشك فيه أن ذلك لا محالة أبلغ من إثباتها بنفسها لأنها على الأول يكون
سبيلها سبيل للدعوى يكون معها شاهد " .

ودراسة عبد القاهر للكناية دراسة فريدة ، وحديثة ، لم أرها لأحد من السابقين
فقد خطت الكناية على يديه خطوات واسعة ، فقد عرفها ، وخرج تعريفها ، وبين
فضلها على التصريح ومزيتها على الإفصاح ، ووضح فروعها وأقسامها ، وكشف
النقاب عن حسناتها وجمالها ، ووضع شروطاً لهذا الحسن والجمال ، وبين موضعها ،

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٤٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

ونوع دلالتها ، ثم أزاح الستار عن بلاغتها بأسلوب جمع فيه بين نروعة الأدبية ، والدقة العلمية ، وقد عالج كل هذه الجوانب البلاغية معالجة الخبير بأساليب اللغة العربية ، المتقن للحلاوتها ، الفاهم لأهدافها ومراميها ، الواقف على أسرارها ودقائقها ، وقد امتازت دراسته بالعمق والتحليل ، وإن كنت آخذ عليه عدم تبويبها ، ودراستها دراسة منهجية في مكان واحد ، تمكن الباحث أن يضع يده عليها بسهولة ، فلقد تكلم عنها في ستة مواضع في كتابه "دلائل الإعجاز"

أبو يعقوب السكاكي والكناية

ثم تحدثت عن الكناية بعد عبد القاهر "أبو يعقوب السكاكي" المتوفى سنة ٦٢٦ هـ في كتابه "المفتاح" تحت الأصل الثالث من علوم البيان فعرّفها بقوله^(١) : "هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما هو ملزومه ، لينتقل من المذكور إلى المذكور كما تقول: زيد طويل النجاد ، فينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة"

ثم علل لسبب هذه التسمية فقال : "وسمى هذا النوع كناية لما فيه من إخفاء وجه التصريح ، ودلالة كنى على ذلك لأن : ك ن ي كنيما تركبت دارت مع معنى الخفاء... ومنه نكى في العدو ينكي إذا أوصل إليه مضارا من حيث لا يشعر بها ، ومنه نكايات الزمان لمصائبه الملمة على بني من حيث لا يشعرون."

ثم فرق بين المجاز والكناية من وجهين :

الأول : أن الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلقطها فلا يمتنع في قولك: "فلان طويل النجاد" أن تريد طول نجاده من غير ارتكاب تأويل مع إرادة طول قامته ، والمجاز ينافي ذلك فلا يصح في نحو "رعينا الغيث" أن تريد معنى الغيث ، والمجاز ملازم لقرينة معاندة لإرادة الحقيقة .

الثاني : مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم .

(١) المفتاح ص ٢١٢ .

ثم قسم الكناية من حيث المطلوب إلى ثلاثة أقسام :

الأول : كناية يطلب بها موصوف ، وجعلها قريبة . وهي ما يتفق فى صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين عارض ، فتذكرها متوصلا بها إلى ذلك الموصوف كقولك : جاءنى المضياف ، وتريد زيدا لعارض من اختصاص للمضياف بزيد

وبعيدة : وهي أن تتكلف اختصاص الكناية بأن تضم إلى لازم آخر ، وآخر حتى تلفق مجموعا وصقيا مانعا من دخول كل ما عدا مقصودك ، مثل أن تقول كناية عن الانسان : حى مستوى القامة عريض الأظفار .

الثاني : كناية يطلب بها نفس الصفة ، وجعلها أيضا قريبة ، وهي ما ينتقل فيها إلى المطلوب من أقرب لوازمه كما تقول : " فلان كثير أضيافه " . والكناية التى يطلب بها صفة قد تكون واضحة لا تحتاج إلى تأمل ، وقد تكون خفية تحتاج إلى تأمل ودقة فهم كقولك : " فلان عريض القفا " كناية عن البلاهة .

وبعيدة : وهي التى ينتقل فيها من لوازم بواسطة لوازم متسلسلة كقولك : " فلان كثير الرماد " لأنك تنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجعر ، ومن كثرة الجعر ، إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور ، ومن كثرة إحراق الحطب إلى كثرة الطبخ ، ومن كثرة الطبخ ، إلى كثرة الأكلة ، إلى كثرة الضيفان ، إلى أنه مضياف .

الثالث : كناية تخصيص الصفة بالموصوف ، وهي أيضا تنفاوت فى اللطف فئارة تكون لطيفة ، وأخرى تكون اللطف .

ثم قسم الكناية تقسيما آخر باعتبار مفهومها ، فإن كانت عرضية كقوله تعالى فى عرض الحال المنتقمين ﴿هَٰؤُلَاءِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْغَيْرِ﴾^(١) إذ فسر الغيب بالغيبية بمعنى يؤمنون مع الغيبة عن حضرة النبى - صلى الله عليه وسلم - أو عن جماعة المسلمين ، على معنى هدى للذين يؤمنون عن إخلاص لا الذين يؤمنون عن نفاق ، فإن كان التعبير كذلك وبهذا المعنى كان إطلاق اسم التعريض عليه مناسبا .

(١) البقرة : ٢ ، ٣ .

وإذا كان التعبير بينه وبين المكنى عنه بعد التوسط عدة لوازم كما فى قولك " كثير الرماد " كان إطلاق اسم التلويح عليه مناسباً لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد، وإن كانت المسافة بين الصورة والمكنى عنه قريبة مع شىء من الخفاء كما فى قولك : " عريض القفا ، وعريض الوسادة " كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسباً ، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية قال الشاعر فى هذا المعنى :

رمرت إليها مخافة من يعلها من غير أن تبدي هناك كلامها

وإن لم يكن فى الصورة شىء من الخفاء كان إطلاق اسم الإيماء والإشارة عليهم مناسباً كقول أبى تمام :

أبين فما يزون سوى كريم وحسبك أن يزون أباسعيد

فإن الصورة واضحة فى التعبير عن كرم أبى سعيد .

وكقول البحزى فى التعبير عن جود ابن يحيى وكرمه :

سألت الندى والجود مالى أراكما تسببلىما ذلاً بعز مؤيد
وما بال ركن المجد أمسى مهديما فقئلاً : أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت : فهلا متما عند موتيه فقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقئلاً : أقمنا كى نعزى بهفقه مسافة يوم تم نسلوه فى غد

هذا ماقدمه السكاكى للكتابة فى البلاغة العربية

وإن من يتأمل دراسة السكاكى للكتابة ، يدرك أنها دراسة جافة قامت على الفلسفة والمنطق ، فقد اعتمد فيها السكاكى على العقل ، وبعد كل البعد عن الدراسة الأدبية التى تعتمد على الذوق والإحساس ، وتقوم على النقد والتحليل فقد وجه كل اهتمامه وصرف كل جهده إلى التقسيمات والتفريعات ، وأغرق فى المسائل الفلسفية والقضايا المنطقية ، حتى أصبحت هذه الصورة البيانية الجميلة فى كلامه كأنها قضية منطقية ، أو نظرية هندسية ، أو مسألة حسابية ، تكاد الذهن و ترهق الفكر ، ليس فيها

ما يحرك شعورا ، أو يثير عاطفة . وللسكاكي عذره في ذلك ، فلقد تأثر في دراسته للكناية بثقافته الفلسفية المنطقية .

ولكننا مع كل هذا لا نجحد فضل السكاكي على هذه الصورة البيانية الجميلة فلقد خطت على يديه بعض الخطوات التي تستحق التسجيل ، فقد عرفها تعريفا جامعاً مانعاً ميزها عن غيرها من سائر الصور البيانية ، وإن كان قد تأثر في هذا التعريف بمن سبقه من علماء البلاغة ، وبخاصة الإمام عبد القاهر الجرجاني كما أنه قد فرق بينهما وبين الجواز ، وهذا عمل جليل قد انفرد به فلم يسبقه إليه أحد وبذلك نستطيع أن نقول في اطمئنان إن هذه الصورة الجميلة قد تحددت معالمها وتميزت تميزاً كاملاً عن غيرها على يد السكاكي . وإن كان قد ظللمها وجار عليها فأفقدتها الكثير من حسناتها زجها لها حين ألبسها ثوبا قائما من الفلسفة والمنطق .

ابن الأثير والكناية

ثم تحدث عن الكتابة بعد ذلك " ابن الأثير المتوفى ٦٣٧ هـ في كتابيه "المثل السائر والجامع الكبير" فيين أصل اشتقاقها فقال: "(١) واعلم بأن الكناية مشتقة من (٢) السر يقال: كتبت الشيء إذا سرتة ، وأجرى هذا الحكم (٣) في الألفاظ التي يستر بها الجواز بالحقيقة فتكون دالة على السائر والمستور معاً .

وقيل إنها مشتقة من الكنية التي يقال فيها أبو فلان - أي ما صدرت بآب أو أم - فإذا نادينا رجلاً اسمه عبداً لله ، وله ولد اسمه محمد فقلنا يا أبا محمد كان ذلك مثل قولنا : يا عبداً لله ، فإن شئنا نادينا بهذا ، وإن شئنا نادينا بهذا ، فكلاهما دال عليه ، وكذلك يجري الحكم في الكناية ، فإذا شئنا حملناها على جانب الجواز ، وإن شئنا حملناها على جانب الحقيقة ، إلا أنه لا بد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق بالكناية مالمس منها ،

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ٥٢ .

(٢) تعبيره بأنها مشتقة من السر فيه شيء من التجاوز إذ إنها مشتقة من الكنى بمعنى السر .

(٣) أي حكم الكناية .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿إِنْ هَذَا أَخَى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِى نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(١) ، فكنتى بالنعجة عن النساء^(٢) والوصف الجامع بينهما هو التأنيت ، ومن أجل هذا لا يلتفت إلى تأويل من تأول قوله تعالى : ﴿وَلِيَابِكَ فَطْهَرٌ﴾^(٣) أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية لأنه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع ، ولو كان بينهما وصف جامع لصح التأويل .

ثم استدل على اشتقاق الكناية من الكنى أو من الكنية بقوله : أما اشتقاقها من كنىت الشيء إذا سترته ، فإن المستور فيها هو المجاز ، لأن الحقيقة تفهم أولا ، ويسارع إليها الفهم قبل المجاز ، لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية وأما المجاز فإنه يفهم بعد فهم الحقيقة ، وإنما يفهم بالنظر والفكر ، ولهذا يحتاج إلى دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ، فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى ، وهو مستور بالحقيقة وأما اشتقاقها من الكنية ، فالأن عبد الله فى الصورة الماضية هو حقيقة هذا الرجل أى الاسم الموضوع إزائه أولا ، وأما أبو محمد فإنه طارىء عليه بعد عبد الله لأنه لم يكن له ، إلا بعد أن صار له ولد اسمه محمد ، وكذلك الكناية فإن الحقيقة لها هى الاسم الموضوع أولا فى أصل الوضع ، وأما المجاز فإنه طارىء عليها بعد ذلك ، لأنه فرع ؛ والفرع يكون بعد الأصل ، وإنما يعتمد ذلك الفرع للمناسبة الجامعة بينه وبين الأصل .

ثم عرف الكناية بقوله^(٤) . " وأما الكناية فقليل : هى اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه " .

ولكن هذا التعريف لم يعجبه فأبطله لجواز أن يكون حدا للتشبيه فإنه اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقى للجامع بين المشبه والمشبّه به فى وصف من الأوصاف .

(١) ص ٣٢ .

(٢) الأولى أن يقال كنى بالنعجة عن المرأة .

(٣) القدر : ٤

(٤) المثل السائر ج ٣ ص ٥٠ .

ثم أورد تعريفا لعلماء الأصول الذين قالوا^(١) : " الكناية هي اللفظ المحتمل " يريدون بذلك أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وخلافه، وأبطله أيضاً بقوله : ليس كل لفظ يدل على المعنى وخلافه كناية ، فقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا لم تستح فافعل ما شئت " يدل على المعنى وعلى خلافه ، فأحد معنييه : إنك إذا لم يكن لك وأزع يزعلك عن الحياء فافعل ما شئت ، والآخر : إذا لم تفعل فعلا يستحي منه فافعل ما شئت . وهذا ليس من الكناية في شيء . ثم عرفها بتعريف ظن أنه جامع مانع فقال^(٢) : " وإذا كان الأمر كذلك ، فحد الكناية الجامع لها هو "أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز" .

وبالتأمل في هذا التعريف نجد أنه وثيق الصلة بمعنى الكناية في اللغة ، إذ إنها في أصل الوضع أن تتكلم بشيء ، وتريد غيره . يقال : كنيته بكذا عن كذا ، فهي تدل على ما تكلمت به ، وعلى ما أردته في غيره ؛ وأنها مشتقة من الكنى بمعنى السر . يقال : كنيته الشيء إذا سترته ، وأجرى هذا الحكم في الألفاظ التي يستر بها المجاز بالحقيقة ، فتكون دالة على الساتر والمستور معا .

ثم قسم ابن الأثير الكناية من حيث استعمالها إلى :

١ - حسنة: وأورد لها كثيراً من الشواهد^(٣) من القرآن والسنة ، ومنثور كلام العرب .

ومنظومه ، ومن هذه الشواهد قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤) ثم علق عليه بقوله : " فإنه إن حمل على الجماع كان كناية ، لأنه ستر الجماع بلفظ اللبس الذي حقيقته مصافحة الجسد الجسد ، وإن حمل على الملامسة التي هي مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ، ولم يكن كناية ، وكلاهما يتم به المعنى ، ولهذا ذهب الإمام الشافعي إلى أن اللبس هو مصافحة الجسد الجسد فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ، وذلك

(١) التل السائر ج ٣ ص ٢١ .

(٢) التل السائر ج ٣ ص ٥٢ تحقيق الدكتورين الحوفي وطبانة .

(٣) التل السائر ص ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ج ٣ تحقيق الدكتورين الحوفي وطبانة .

(٤) النساء : ٤٣ .

هو الحقيقة في اللمس ، وذهب غيره إلى أن المراد باللمس هو الجماع ، وذلك مجاز فيه ، وهو الكناية .

ومن هذه الشواهد أيضا قوله تعالى : ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا﴾^(١) ثم بين موضع الكناية في الآية الكريمة بقوله : والأرض التي لم تطوها كناية عن " مناحج النساء " .

ومن الشواهد النبوية التي أوردها قول النبي (صلى الله عليه وسلم) " رويدك سوقك بالقرارير"^(٢) ثم بين موضع الكناية بقوله : " يريد بذلك النساء ، فكنى عنهن بالقرارير " .

ومن شواهد النبوية أيضا ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال يا رسول الله : هلكت ، قال : وما أهلكك ؟ قال : حولت رحلي البارحة ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) أقبل ، وأدبر ، واتفق الدبر والخيشة " .

ومن شواهد التي أوردها من المتنور ما روى أن امرأة جاءت لعائشة رضي الله عنها - فقالت لها : أقيد جملي ؟ فقالت عائشة رضي الله عنها " لا " ثم علق على الشاهد مبينا موضع الكناية فقال : " أرادت المرأة أن تضع لزوجها شيئا يمنع عن غيرها ، أى تربطه أن يأتي غيرها . فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجميل ، وباطنه ما أرادت المرأة ، وفهمته عائشة " .

(١) الأحزاب : ٢٧ .

(٢) قاله النبي صلى الله عليه وسلم لفلان أسود اسمه أنجشة كان يحدو بالنساء ركابهن في بعض أسفاره ويرتجز بنسيب الشعر والرحز ورايعن ، فأمره بالكف عن نسيبه وحدائه حذار صباهن إلى غير الجميل ، وقيل إن الإبل إذا سمعت الحذاء أسرع في السير واشتدت فأزعجت الراكب فأتبعته فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة " لسان العرب مادة قرر والنهاية لابن الأثير ج ٣ ص ٢٤٠ .

ومن ذلك ما روى أن عمرو بن العاص -رضي الله عنه - زوج ولده عبد الله رضي الله عنه فمكثت المرأة عنده ثلاث ليال لم يبدن منها ، وإنما كان ملتفتا إلى صلاته ، فدخل عمرو بعد ثلاث ، فقال : كيف ترين بعلي؟ فقالت : نعم البعل ، إلا أنه لم يفتش لنا كنفا ، ولا قرب لنا مضجعا".

ثم بين ابن الأثير الكناية في قول المرأة ووصفها بالحسن والجودة فقال: فقولها " لم يفتش لنا كنفا ، ولا قرب لنا مضجعا " من الكناية الغراء الظاهرة .

ومن أمثال العرب التي أوردها ، واستشهد بها على الكناية قولهم : "إياك وعقيلة الملح" ثم بين الكناية في المثل بقوله : " وذلك كناية عن المرأة الحسنة في منبت السوء، فإن عقيلة الملح هي اللؤلؤة تكون في البحر ، فهي حسنة ، وموضعها ملح " .
وقولهم : " ليس له جلد النمر " كناية عن العداوة .

ومن شواهد التي أوردها من المنظوم قول أبي تمام في قصيدته التي يستعطف بها مالك بن طوق على قومه والتي مطلعها :
" أرض مصردة ، وأرض منجم "(١)
مالى رأيت ترابكم ييس الثرى مالى أرى أطوادكم تهدم

ثم بين الكناية في البيت بقوله : " فييس الثرى كناية عن تنكر ذات البين ، تقول: ييس الثرى بيني وبين فلان ، إذا تنكر الود الذي بينك وبينه ، وكذلك تهدم الأطواد ، فإنه كناية عن خفة الحلوم ، وطيش العقول " .

وقول أبي الطيب المتنبي في قصيدته التي يعاتب فيها سيف الدولة ابن حمدان التي مطلعها : " وأحر قلباه ممن قلبه شم " :
وشمر ما قنصته راحتى قنص شهب البراة سواء فيه والرحم

ثم علق على البيت بقوله : " يشير بذلك إلى أن سيف الدولة يستوى في المنال منه

(١) مصردة : قليلة الرى والمطر - منجم : يدوم عليها المطر .

هو وغيره ، فهو البازي ، وغيره الرحمة .

٢- قبيحة ، وأورد لها كثيرا من الشواهد^(١).

ثم أشار إلى أن الكناية وردت في غير اللغة العربية فقال^(٢) : " ووجدتها في اللغة السريانية ، فإن الإنجيل الذي في أيدي النصارى قد أتى منها بالكثير ، ومما وجدته في الكناية في لغة الفرس أنه كان رجل من أساورة^(٣) كسرى ، وعواصه ، فقبل له : إن الملك يختلف إلى امرأتك ، فهجرها لذلك وترك فراشها ، فأعيرت كسرى ، فدعاه ، وقال له : قد بلغنى أن لك عينا عذبة وأنت لا تشرب منها فما سبب ذلك ؟ قال أيها الملك : بلغنى أن الأسد يردها فخفته . فاستحسن كسرى منه الكلام وأجزل عطاه "

ثم تحدث عن التعريض ، وفرق بينه وبين الكناية فقال : " وأما التعريض فهو الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : والله إني محتاج ، وليس في يدي شيء ، وأنا عريان ، والبرد قد آذاني ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا ، إنما دل عليه من طريق المفهوم بخلاف دلالة الكناية في أية صورة مما مضى . ويؤكد هذه التفرقة بقوله أيضا^(٤) . والتعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا بالمجازي ثم علل لسبب تسميته بالتعريض فقال :

" وإنما سمى التعريض لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أى جانبه - وعرض الشيء جانبه " . ثم استرسل في توضيح الفرق بين الكناية والتعريض فقال : " كما أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ، فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما

(١) المثل السائر ج٣ ص ٧٠ وما بعدها .

(٢) المثل السائر ج٣ ص ٧٥ .

(٣) الأساورة جمع أسوار يضم المعزة وكسرهما : وهو القائد من الفرس أو هو الفارس .

(٤) المثل السائر ج٣ ص ٧٧ .

التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتي من اللفظ المفرد ألبته ، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ، ولا من جهة المجاز ، وإنما يفهم من جهة البلوغ والإشارة ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد، ولكنه يحتاج فى الدلالة عليه إلى اللفظ المركب".

وبالتأمل فى كلام ابن الأثير نستطيع أن نقول فى إيجاز إن الفرق بين الكناية والتعريض عند ابن الأثير يتلخص فى ثلاثة أمور :

١- التعريض: اللفظ الدال على الشئ من طريق المفهوم بالوضع الحقيقى والمجازى، والكناية كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز .

٢- دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ، ولا المجازى ، لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أى من جانبه .

٣- الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا ، فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتي فى اللفظ المفرد ألبته .

هذا ما قدمه ابن الأثير للكناية فى البلاغة العربية ، ولقد اتجه فى دراسته لها اتجاها أدبيا ، اعتمد فيه على ذوقه وحسه ، فأكثر من الشواهد الأدبية ، وخرجها تخريجا حسنا ، وحللها تحليلا جميلا ؛ جمع فيه بين الروعة الأدبية والدقة العلمية ، وبين الحسن منها والقيح ، مع الإقلال من القواعد والابتعاد عن الإغراق فى التقسيمات والتفريعات. وبذلك نستطيع أن نقول إن ابن الأثير قد وضع أسس اتجاه جديد فى البلاغة ، فى زمن اتجهت فيه البلاغة على يد السكاكى إلى التقييد والتقنين والإغراق فى التقسيمات والتفريعات .

كما امتازت دراسته للكناية بالإحاطة والشمول ، فلم يكتف بدراستها فى اللغة العربية كما فعل غيره من العلماء السابقين ، بل تعدى هذا إلى دراستها فى اللغة السريانية والفارسية وإن كنت آخذ عليه أنه لم يكشف القناع عن بلاغة الكناية ، ولم يحدثنا عن أثرها فى الأساليب العربية .

ابن أبى الإصبع والكناية

ثم تحدث عن الكناية " ابن أبى الإصبع المصرى " المتوفى سنة ٦٥٤ هـ فى كتابيه "تحرير التحبير ، وبديع القرآن " فعرفها بقوله : "هى عبارة عن تعبير المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن وعن النجس بالطاهر، وعن الفاحش بالعفيف"^(١) " هذا إذا قصد المتكلم نزاهة كلامه عن العيب ، وقد يقصد بالكناية غير ذلك ، وهو أن يعبر عن الصعب بالسهل ، وعن البسط بالإيجاز ، أو يأتى للتعمية والإلغاز، أو للسر والصيانة". ثم أورد لها كثيراً من الشواهد من القرآن ، والحديث ، وجيد الشعر للجاهليين والمحدثين ، عرجا تلك الشواهد ، مبينا موضع الشاهد فيها.

ومن شواهد التى أوردتها قوله تعالى : "كانا يأكلان الطعام"^(٢) ثم بين الكناية فى الآية الكريمة بقوله : " كناية عن الحدث لأنه ملازم أكل الطعام"^(٣)

وقوله تعالى : "أو جاء أحد منكم من الغائط"^(٤) ثم علق على الآية بقوله : " لأنه"^(٥) المنخفض من الأرض الذى يقصد لقضاء الحاجة . فسمى الحدث باسم موضعه "

وقوله تعالى : "ولكن لاتواعد هن سرا"^(٦) كناية عن الجماع ، وقوله تعالى : "وقد أفضى بعضكم إلى بعض"^(٧) كناية عن المباشرة .

ودراسة ابن أبى الإصبع المصرى للكناية دراسة جديدة وفريدة ، فهى دراسة أدبية

(١) تحرير التحبير ص ١٤٣ ، وبديع القرآن ص ٥٣ .

(٢) سورة المائدة : ٧٥ .

(٣) بديع القرآن ص ٥٣ .

(٤) سورة النساء : ٤٣ .

(٥) أى الغائط .

(٦) سورة البقرة : ٢٣٥ .

(٧) سورة النساء : ٢١ .

رائعة جميلة ، تهدف إلى الكشف عن الفوائد الأدبية التي تكمن في الصور البلاغية ، فابن أبي الإصبع درس الكناية على أنها صورة أدبية ، وطريق من طرق التعبير الفني الجميل التي يسلكها الأديب للتعبير عما يجول في نفسه من المعاني ، ويجيش في صدره من الخواطر ، وقد استطاع بمهارته الأدبية ، ودقته الفنية أن يكشف القناع عن فوائد الكناية ، وحصرها فيما يلي:-

- ١- التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن .
- ٢- التعبير عن النجس بالطاهر ، وعن الفاحش بالعفيف .
- ٣- التعبير عن الصعب بالسهل .
- ٤- الإيجاز .
- ٥- السر والصيانة .
- ٦- التعمية والإلغاز .

والعجيب أن هذه الدراسة الأدبية الرائعة التي أتمه إليها ابن أبي الإصبع تأتي في وقت قد اتجهت فيه البلاغة على يد السكاكي إلى التقييد والتقنين، ولكن لا غرابة ولا عجب أن يتجه ابن أبي الإصبع إلى هذه الدراسة ، فهو أديب مطبوع ، وناقد فذ ، قد حياه الله ذوقاً رقيقاً ، وذهناً صافياً ، وحساً مرهفاً ، وعيلاً خصباً ، كما أنه نشأ في البيئة المصرية الجميلة الساحرة ، والتي خلعت أرضها الطيبة من الفلسفة والمنطق.

وهذا الاتجاه الأدبي ، وإن كان قد وضع أسسه ابن الأثير كما سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء حديثنا عن الكناية عند ابن الأثير ، إلا أن ابن أبي الإصبع لم يقف عند حد الأسس التي وضعها ابن الأثير ؛ بل تعدى ذلك إلى شيء جديد هو الكشف عن الفوائد الأدبية التي تكمن في الصور البلاغية ، وهذا الكشف الجديد قد غاب عن ابن الأثير ، وتوصل إليه ابن أبي الإصبع وانفرد به ، فهو من جديده الذي لم يسبق إليه .

عز الدين بن عبد السلام والكناية

ثم تحدث عن الكناية الشيخ عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ في

كتابه "الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز" فقال^(١): "النوع السادس عشر الكنايات كما جاء في قول إحدى النسوة في حديث أم زرع " زوجي رفيع العماد ، طويل النجاد، عظيم الرماد ، قريب البيت من النار "

ثم أخذ في بيان الكنايات في الحديث فقال : " كنت برفعة عماده عن شرفه ومنزلته ؛ لأن من طالت قامته طال مجاد سيفه ، وكنت بعظم رماده عن كثرة ضيافته ، وإطعمه ؛ لأن الرماد لا يعظم إلا عن كثرة الطبخ والإحراق للحطب الكثير ، وكنت بقرب بيته من المجلس عن كرمه لأن البخلاء كانوا يعدون بيوتهم عن المجلس كيلا يستيعون الأضياف منه ، وكانوا ينزلون في المواضع المنخفضة كيلا يراهم الضيفان فيأتونهم، ولذلك قال طرمة :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يستغفد القوم أرقد^(٢)

ثم بين أن الكناية ليست من المجاز فقال: " والظاهر أن الكناية ليست من المجاز لأنها^(٣) استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأرادت به الدلالة على غيره ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له ، وهذا شبيه بدليل الخطاب في مثل قوله تعالى: " فلا تقل لهما أف"^(٤) وفي مثل نهيه عن التضحية بالعوراء والعرجاء "

ودراسة الشيخ عز الدين بن عبد السلام للكناية تسمير في نفس الاتجاه الأدبي الذي وضع أسسه ابن الأثير ، ونماه وجدد فيه ابن أبي الإصبع المصري فقد أورد حديث أم زرع وكشف عما فيه من الكنايات بأسلوب جمع فيه بين الروعة الأدبية والدقة العلمية . إلا إنني آخذ عليه أنه لم يضع تعريفا للكناية تتميز به عن غيرها من الصور البلاغية كما أنه لم يحدثنا عن فوائد الكناية كما فعل ابن أبي الإصبع المصري من قبله كما آخذ عليه

(١) انظر ص ٨٥ من كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز.

(٢) التلاع : جمع تلعة ، وهي من الأضداد يطلق على الارتفاع والانخفاض .

(٣) أي أم زرع .

(٤) الإسراء : ٢٣ .

قلة الشواهد الأدبية - فقد اكتفى بحديث أم زرع وكنت أنتظر منه وهو الأديب الأريب والعالم المدقق والناقد الخبير أن يكثر من الشواهد الأدبية وأن يتناولها بالنقد والتحليل مبينا مافيها من الجودة والحسن أو الرداءة والقيح معللا أسباب ذلك .

النويرى والكناية .

ثم تحدث عن الكناية بعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام "النويرى"^(١) المتوفى سنة ٧٣٣هـ فى كتابه " نهاية الأرب " فعرّفها بقوله^(٢) : " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تأليه وردفه فى الوجود ، فيسمى به إليه ، ويجعله دليلا عليه " ، ثم أورد لها بعض الشواهد الأدبية من القرآن الكريم والشعر ، ومن الشواهد التى أوردها قوله تعالى : "إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم"^(٣) ثم كشف عن الكناية فى الآية الكريمة بقوله: كنى بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر " .

ومن الشواهد الشعرية التى أوردها قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما النوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ثم بين موضع الكناية فى البيت بقوله : " أراد أن يذكر جيدها ، فأتى يتابعه وهو مهوى القرط "

ومن شواهد الشعرية أيضا قول ليلى الأخيلى:

وغرق عنه القميص تخالاه وسط البيوت من الحياء سقيما

ثم بين الكناية فى البيت بقوله: " كنت عن جوده بخرق القميص من جذب العفاة له

(١) هو الإمام البحاث شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد عبد الدايم البكرى التيمى القرشى المعروف بالنويرى المولود بقوص سنة ٦٧٧ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٣ هـ .

(٢) نهاية الأرب ج٧ ص ٥٩ .

(٣) آل عمران : ٩٠ .

عند ازدحامهم لأخذ العطاء"

ثم ذكر أن الكناية قد تكون في المثبت كما في الأمثلة السابقة، وقد تكون في الإثبات ثم عرف الكناية في الإثبات بقوله: "وهي ما إذا حاولوا إثبات معنى من المعاني لشيء فيكون التصريح بالإثبات له، ويثبتونه لما له به تعلق" ثم مثل لها بقولهم: "المجد بين ثوبه، والكرم بين برديه" وقول زياد الأعجم:

إن المروءة والسماحة والندى في قبة ضربت على ابن المحشرح

ثم بين أن الكناية ليست من المجاز فقال^(١): "واعلم أن الكناية ليست من المجاز لأنك نعت في ألفاظ الكناية معانيها الأصلية، وتفيد بمعناها معنى ثانيا هو المقصود فتزيد بقولك ذكر الرديف، وإرادة المردوف"

ثم فرق بينها وبين التعريض بأن التعريض: تضمين الكلام دلالة ليس لها ذكر كقولك: "ما أقبح البخل" لمن تعرض ببخله^(٢) والنويري في دراسته للكناية قد تأثر بالشيخ عبد القاهر الجرجاني، فتعريفه للكناية هو تعريف عبد القاهر، وشواهد هـ شواهد، كما تأثر في دراسته أيضا بالشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقد نفى أن تكون الكناية من المجاز متابعا في ذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وقد علل نفى المجاز عنها بنفس التعليل الذي ذكره عز الدين بن عبد السلام مع الاختلاف في الصياغة وبذلك نستطيع أن نقول إن النويري لم يضيف إلى الكناية جديدا يذكر فقد ترسم خطا الشيخين عبد القاهر الجرجاني وعز الدين بن عبد السلام وإن أخذ عليه قلة الشواهد الأدبية مع أنه أديب ذواق قد منحه الله ذوقا رقيقا، وذهنا صافيا، كما أخذ عليه عدم تعليقه على بعض الشواهد التي أوردها، وعدم تناوله هذه الشواهد بالنقد والتحليل.

(١) نهاية الأرب ج ٧ ص ٦٠ .

(٢) نهاية الأرب ج ٧ ص ٦٠ .

الخطيب القزويني والكناية

ثم تحدث عن الكناية " الخطيب القزويني " المتوفى سنة ٧٣٩هـ في كتابه " الإيضاح ^٥ فعرّفها بقوله (١): " الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ "

ثم فرق بينهما وبين المجاز، بأن الكناية يجوز فيها إرادة المعنى مع إرادة لازمة والمجاز لا يجوز فيه ذلك لأنه ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة، وملزوم معاند الشيء معاند لذلك الشيء، فلا يصح في قولنا: في البيت أسد أن نريد معنى الأسد من غير تأويل.

ثم قسم الكناية بحسب المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام:-

١- قسم يطلب به موصوف .

٢- قسم يطلب به صفة .

٣- قسم يطلب به نسبة .

ثم قسم كل نوع إلى قريب وبعيد .

وقد ترسم في هذا التقسيم خطأ السكاكي- ودراسة الخطيب القزويني للكناية تسير في الاتجاه الذي رسمه السكاكي والذي مزق به أوصال البلاغة العربية، وسلبها حسناتها وجمالها، وأفقدتها بهاءها ورواءها فهو لم يزد في دراسته للكناية عما قاله السكاكي، ولم يقدم جديدا يستحق الذكر والتسجيل .

العلوي والكناية:

ثم تحدث عن الكناية بعد الخطيب القزويني "أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني" المتوفى سنة ٧٤٩هـ، في كتابه " الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، وعلوم حقائق التنزيل " فأماط اللثام عن منزلتها في البيان العربي فقال: " اعلم أن الكناية واد من أودية البلاغة وركن من أركان المجاز (٢) "

(١) انظر ص ٢٣١ من كتاب الإيضاح .

(٢) انظر ص ٣٦٤ .

ثم كشف عن حقيقتها في لسان أهل اللغة فقال: "الكناية مصدر كنى يكتنى وكنيته تكتبه حسنة، ولأمها واو، وياء، يقال: كناه يكتبه، ويكنوه^(١)" ثم كشف أيضا عن حقيقتها في لسان أهل اللغة فقال: "الكناية مقولة على ما يتكلم به الإنسان ويريد به غيره" وأنشد الجوهري لأبي زياد:

ولئى لأكتو عن قدور بغيرها وأعرب أحيانا بها فأصارع

والكنية - بالضم والكسر في فائها - واحدة الكنى، واشتقاقها من السر يقال: كتبت الشيء إذا سترته، وإنما أجرى هذا الاسم على هذا النوع من الكلام لأنه يستر معنى ويظهر غيره^(٢)

ثم كشف عن حقيقتها عند علماء البيان فذكر تعريفاتهم، وناقشها مناقشة الأدب المتذوق والعالم المدقق، فذكر تعريف الشيخ عبد القاهر لها وهو: "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يعمى إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومى به إليه، ويجعله دليلا عليه"

وبين أنه فاسد لأمر ثلاثة:-

١- الأمر الأول: أن قوله "تاليه" إما أن يريد به مثله فهو خطأ فإن الكناية ليست مماثلة لما كان من اللفظ الذى ترك بالكناية، وإما أن يريد معنى آخر فيجب ذكره حتى ننظر فيه إما بصحة أو فساد.

٢- الأمر الثانى: أن قوله: "فيومى به" ليس يخلو الإيماء إما أن يكون على جهة الحقيقة أو على جهة المجاز، فلفظة الإيماء محتملة لما ذكرناه، وليس فى الإيماء إشارة إلى أحد الوجهين، فلا بد من بيان أحدهما، وإلا كان كلاما محملا لا يفيد فائدة وهو محبان لصناعة الحدود.

٣- الأمر الثالث: أن هذا التعريف ليس مانعا، لأنه يدخل الاستعارة فى الكناية، لأن

(١) انظر ص ٣٦٥ .

(٢) الطراز ص ٣٦٦ .

قولك: "رأيت أسدا ولقيت بحرا" قد تركت فيه اللفظ الموضوع للشجاعة والكرم،
وأنتيت بتاليهما، وأومأت إليه^(١)

ثم ذكر تعريف ابن الأثير الذي حكاه عن بعض علماء البيان، وارتضاه وهو
اللفظ الدال على الشيء بغير الوضع الحقيقي بوصف جامع بين الكتابة والمكنى عنه^(٢)
وأبطله بثلاثة أمور:

١- الأمر الأول : أن هذا يبطل بالتشبيه فإنه اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقي في
وصف من الأوصاف كقولنا " كان زيدا الأسد" فأدخل فيه ما ليس منه.

٢- الأمر الثاني: أن الكتابة لا تقتصر إلى جامع ، فإننا إذا قلنا: " فلان كثير رماد القدر"
وجعلنا هذا دلالة على كونه كريما، فهو غير محتاج إلى ذكر جامع ، فاعتبار ذكر
الجامع في الكتابة يخرجها عن حقيقة وضعها، ويبطل فائدتها.

٣- الأمر الثالث: أنه ذكر الكتابة والمكنى عنه في حد الكتابة، وهذا فيه تفسير الشيء
بنفسه، وإحالة بأحد المجهولين على الآخر فهو باطل^(٣)

ثم ذكر تعريف ابن سراج المالكي في كتابه " المصباح وهو : "ترك التصريح بالشيء
إلى مساويه في اللزوم ليتقل في اللزوم منه إلى اللزوم"

وبين وجه فساد به أمرين:-

١-الأول : أن ما ذكره حاصل في الاستعارة في نحو قولك: "رأيت الأسد ولقيت البحر"
فإنك تركت التصريح بقولك: " لقيني الشجاع" إلى لفظ " الأسد" والكرم إلى لفظ
" البحر" والكتابة مخالفة للاستعارة في ماهيتها، فلا يخلط أحدهما بالآخر.

٢- الثاني : أن قوله: "إلى مساويه في اللزوم ليتقل منه إلى اللزوم" إن أراد باللزوم ،

(١) الطراز ص ٣٦٧ .

(٢) الطراز ص ٣٦٩ .

المدلول فذكر المدلول أوضح، فلاحاجة إلى العدول عنه، وإن أراد به معنى آخر غير المدلول فهو خطأ، لا فائدة فيه لأنه لا مشاركة بينهما، إلا في مدلولها لا غير، ولهذا كان كناية عنه. ثم التمس له العذر لأنه كان مولعا بممارسة المنطق، ومعالجة فقلبت عليه عباراته^(١).

ثم ذكر تعريفًا حكاه ابن الأثير عن بعض الأصوليين وهو "إنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه".

وبين فسادَه بأمرين :

١- الأول : أن ما قاله يبطل باللفظ المشترك في نحو قولك: "قرأ، وشقق" فإن كل واحد منها دال على معنى، وعلى خلافه.

٢- الثاني : أن ما ذكره يبطل بالحقيقة والجاز، فإن قولنا "أسد وبعر" كما يدل على ما وضع له بالحقيقة فهو دال على ما استعمل فيه من الجاز فيلزم أن يكون ما ذكرناه من الكناية وهو باطل^(٢).

ثم ذكر تعريف ابن الخطيب الرازي في كتابه "نهاية الإيجاز" وهو "اللفظ الدال على معنى مقصود مع ملاحظة معناه الأصلي".

وأبطله بأمرين :-

١- الأول : أنه فاسد بالاستعارة، فإنها دالة على معنى مقصود مع ملاحظه معناه الأصلي، فيلزم على ما قاله دخولها في الكناية

٢- الثاني : أنه يبطل بالحقيقة مع جازها، فإنه ما من جاز يدل على معنى، إلا وهو دال

(١) الطراز ص ٣٧٠ .

(٢) الطراز ص ٣٧١ .

على حقيقته، و في هذا دخول أنواع المجاز في الكناية وهذا باطل^(١)

ثم ذكر تعريف ابن الأثير نفسه وهو " كل لفظ دال على معنى ، يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز".

وأظهر فساده بثلاثة أمور:

١- الأول : أن قوله: " معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز" خطأ ، لأن المعنى الواحد لا يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً ، لاجتماع النفس والإثبات فيه، لأنه يصير حقيقة ليس حقيقة وهو باطل، بل الحق في الكناية أنهما معنيان، أحدهما حقيقة، والآخر مجاز ، وظاهر كلامه أنهما معنى واحد.

٢- الثاني : أن ما ذكره يطل بالاستعارة في مثل قولنا : فلان أسد وبحر" فإن قولنا : أسد كما يدل بحقيقته على السبع، فهو دال بمجازه على الشجاعة فيجب دخوله في حد الكناية.

٣- الثالث : أن قوله: " بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز" يدخل فيه التشبيه فإنه لا يد في من اعتبار أمر جامع بخلاف الكناية، فإنها لا تقتصر إلى ذكر الجامع، فاعتبار قيد الوصف الجامع يدخلها في التشبيه، ويخرجها عن حقيقتها^(٢).

ثم عرف الكناية بقوله^(٣): " هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين حقيقةً ومجازاً من غير واسطة لا على جهة التصريح"

ثم شرح التعريف فقال: " فقولنا: " اللفظ الدال" يحترز به عن التعريض فإنه ليس مدلولاً عليه بلفظ، وإنما هو مفهوم من جهة الإشارة والفحوى، وقولنا: " على معنيين"

(١) الطراز ص ٣٧١ .

(٢) الطراز ص ٣٧٣ .

(٣) الطراز ص ٣٧٤ .

يحتز به عما يدل على معنى واحد، فإنه ليس كناية، ويدخل فيه اللفظ المتواطئ كرجل وقرس، واللفظ المشترك كقولنا " قرء وشفق" فإنهما دالان على معنيين، وقولنا: " مختلفين" يخرج عنه المتواطئ فإن دلالة على أمور متماثلة، وقولنا: " حقيقة ومجازا" يحتز به عن اللفظ المشترك، فإن دلالة على ما يدل عليه من المعاني على جهة الحقيقة لا غير وقولنا: " من غير واسطة" يحتز به عن التشبيه، فإنه لا بد فيه من أداة التشبيه إماظاهرة وإما مضمرة" وقولنا: " على جهة التصريح" يحتز به عن الاستعارة فإن دلالتها على ما تدل عليه من جهة صريحها، إما من غير قرينة، كدلالة الأسد على الحيوان، وإما مع القرينة كدلالة الأسد على الشجاع، فكلاهما مفهوم من جهة التصريح بخلاف الكناية، فإن الجماع ليس صريحا من قوله تعالى: "فأتوا حرثكم"^(١) وإنما هو مفهوم على جهة التبع.

ثم فرق بين الكناية والاستعارة بثلاثة أمور^(٢) :-

١- الأمر الأول : الاستعارة عامة، والكناية خاصة، فكل استعارة كناية، وليس كل كناية استعارة.

٢- الأمر الثاني : الكناية يتحاذبها أصلان، حقيقة ومجاز، وتكون دالة عليهما معا عند الإطلاق ، بخلاف الاستعارة ، فإن لفظ " الأسد" يستعمل في " السبع" فيكون دالا عليه، ثم يستعمل في " الشجاع" فيكون دالا عليه، فأما الكناية فهي دالة على الحقيقة والمجاز جميعا عند الإطلاق.

٣- الأمر الثالث : أن لفظ الاستعارة صريح، ودلالتها على ما تدل عليه من الحقيقة والمجاز على جهة التصريح، بخلاف الكناية فإن دلالتها على معناها المجازي ليس من جهة التصريح ؛ بل من جهة الكناية .

ثم فرق بين الكناية والتعريض من أوجه ثلاثة^(٣) :-

(١) سورة البقرة : ٢٢٣ .

(٢) الطراز ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

(٣) الطراز ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

١- الوجه الأول : أن الكناية واقعة في الجاز ومعدودة منه، بخلاف التعريض فلا يعد منه، وذلك من أجل كون التعريض مفهوماً من جهة القرينة، فلا تعلق له باللفظ، لا من جهة حقيقة، ولا من مجازه .

٢- الوجه الثاني : أن الكناية تقع في المفرد والمركب، بخلاف التعريض فإنه لا موقع له في باب اللفظ المفرد .

٣- الوجه الثالث : أن التعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز، بخلاف التعريض فإن دلالة من جهة القرينة والإشارة ، ولا شك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه فهو أوضح مما يدل عليه باللفظ، وإن علم بدلالة أخرى .

ثم استدل على الفرق الثالث بما ورد عن علماء الشريعة في التفرقة بين صريح القذف وكناية وتعريضه ، فقال: " ومن أجل هذا فرق علماء الشريعة بين صريح القذف وكناية وتعريضه، فأوجبوا في الصريح من القذف الحد مطلقاً في قولك: يا زاني، وأوجبوا في كنياته الحد إذا نوى به في مثل قولك : "يا فاعلاً بأمة ويامفعولاً به" ولم يوجبوا في التعريض الحد في مثل قولك : "يا ولد الحلال" وما ذاك إلا لأجل أن التصريح والكناية يدلان على القذف من جهة اللفظ إما بالحقيقة أو بالمجاز .

ثم أورد للكناية كثيراً من الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية، ومنشور كلام العرب ومنظومه، وبين ما تشتمل عليه هذه الشواهد من الكنايات وحللها تحليلًا أدبيًا رائعاً^(١) ، يدل على معرفة تامة بالأساليب العربية، وخبرة واسعة بأسرار الكلام ودقائقه، وأهدافه ومقاصده .

إلا أنني لاحظت عليه أن أكثر شواهد قد نقلها من المثل السائر لابن الأثير .

ودراسة العلوي للكناية دراسة ممتازة بالإحاطة والشمول، وتقوم على العقل، وتعتمد في أغلب الأحيان على الفلسفة والمنطق، فقد اطلع على جهود القدماء، ثم تناولها

(١) انظر الطراز من ص ٤٠٠ إلى ص ٤٢٦ .

بالنقد الفلسفى المنطقى ، ثم أدلى بدلوه فى النهاية ، فوضع للكناية تعريفا جامعاً مانعاً ، يدل على محكمته من المنطق ، وعبرته الثامة بمحدوده ورسومه وقضاياه ، ثم فرق بين الكناية والاستعارة ، وهذا من جديده الذى لم يسبق إليه ، فلم نر أحداً من القدماء قد تعرض للفرق بينهما ، وإن كانت الفروق التى ذكرها تبدو عليها الصبغة المنطقية الفلسفية ، ثم فرق بين الكناية والتعريض ، وقد سبقه إلى ذلك ضياء الدين بن الأثير كما أشرت إلى ذلك أثناء حديثى عن الكناية عند ابن الأثير .

وإن من يتأمل دراسة العلوى للكناية يرى أنها لا تسير فى الاتجاه الأدبى الخالص ولا الكلامى البحت ، ولكنها تسير فى اتجاه جديد يمتزج فيه الاتجاهان الأدبى والكلامى ، وإن كان المنهج الكلامى أكثر وضوحاً فى دراسته من المنهج الأدبى . فقد ركز كل اهتمامه على نقد تعريفات السابقين ، وأهمل الناحية الجمالية .

وبذلك نستطيع أن نقول إن الجديد الذى قدمه العلوى للكناية ينحصر فيما يلى :

- ١- الفرق بين الكناية وبين الاستعارة .
- ٢- وضع تعريف جديد للكناية يختلف عن تعريفات السابقين ، ويميزها بتمييزاً تاماً عن جميع ماعداها من الصور البلاغية .
- ٣- الاتجاه الذى سلكه فى دراستها اتجاه يكاد يكون جديداً ، فهو مزيج من الاتجاهين الأدبى والكلامى .

ويؤخذ عليه أنه لم يبين لنا الحسن منها والقيبح والجيد والردىء ، بل اكتفى بنقل شواهد ابن الأثير التى أوردها فى كتابه المثل السائر ولم يعلق عليها أو يتناولها بالتحليل والنقد الأدبى ، كذلك يؤخذ عليه أن تعريفه الذى ذكره فى النهاية وإن كان جامعاً مانعاً ، إلا أنه أعمل أثر العاطفة فى رسم الصورة الجمالية بالكناية .

الزركشى والكناية

ثم تحدث عن الكناية " الزركشى " المتوفى سنة ٧٩٤ هـ فى كتابه " البرهان فى (١)

(١) انظر ص ٣٠١ من ج ٢ من كتاب البرهان فى علوم القرآن .

علوم القرآن " فذكر أنها عند علماء البيان " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيسمى به إليه ، ويجعله دليلا عليه ، فيدل على المراد من طريق أولى " .

ثم ذكر أقوال العلماء في أنها حقيقة أو مجاز فقال: " قال الطرسوسي^(١) في العمدة " قد اختلف في وجود الكناية في القرآن ، وهو كالتخلاف في المجاز ، فمن أجاز وجود المجاز فيه أجاز الكناية ، وهو قول الجمهور ، ومن أنكر ذلك أنكر هذا " .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : " الظاهر أنها ليست بمجاز ، لأنك استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأردت به الدلالة على غيره ، ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له ، وهذا شبيه بدليل الخطاب في مثل قوله تعالى : " فلا تقل لهما أف " (٢) .

ثم ذكر أسباب^(٣) الكناية ، وأجملها فيما يلي :-

١- التنبية على عظم القدرة كقوله تعالى : " هو الذي خلقكم من نفس واحدة " (٤) كناية عن آدم عليه السلام .

٢- فطنة المخاطب كقوله تعالى في قصة داود عليه السلام : " خصمان بني بعضنا على بعض " (٥) فكنى داود بخصم على لسان ملكين تعريضا ، وقوله تعالى في قصة النبي صلى الله عليه وسلم ، وزيد " ما كان محمد أباً أحد من رجالكم " (٦) أي " زيد "

(١) هو نجم الدين إبراهيم بن علي الطرسوسي المتوفى سنة ٧٥٨ هـ ذكره صاحب كشف الظنون .

(٢) الإسراء : ٢٣ .

(٣) انظر ص ٣٠٢ وما بعدها من ج ٢ من كتاب الرهان في علوم القرآن .

(٤) الأعراف : ١٨٩ .

(٥) ص : ٢٢ .

(٦) الأحزاب : ٤٠ .

ولكن رسول الله " وقوله تعالى . "فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة"^(١) فإنه كناية عن ألا تعاندوا عند ظهور المعجزة ، فتمسككم هذه النار العظيمة .

٣- ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه كقوله تعالى : ﴿إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة﴾^(٢) ولى نعجة واحدة ﴿٣﴾ فكنى بالنعجة عن المرأة ، كمادة العرب في أنها تكتنى بها عن المرأة وقوله تعالى : ﴿إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة﴾^(٤) كنى بالتحيز عن الميزة ، وقوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم﴾^(٥) كنى بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر لأنه يرادفه .

٤- أن يفحش ذكره في السمع فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع كقوله تعالى : ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾^(٦) أى كنوا عن لفظه ، ولم يوردوه على صيغته ، وقوله تعالى : ﴿لكن لا تواعدهن سرا﴾^(٧) فكنى عن الجماع بالسر .

ثم علق على الآية الكريمة مبينا الحكمة واللطافة في الكناية عن الجماع بالسر فقال: " وفيه لطيفة أخرى لأنه^(٨) يكون من الآدميين في السر غالبا ولا يسره ماعدا الآدميين إلا الغراب ، فإنه يسره ، ويحكى أن بعض الأدباء ، أسر إلى أبى حاتم كلاما فقال: " ليكن عندك أخفى من سقاء الغراب ، ومن الرءاء في كلام الألف " فقال : " نعم ياسيدنا ، ومن ليلة القدر ، وعلم الغيب^(٩) " .

(١) البقرة : ٢٤ .

(٢) ص : ٢٣ .

(٣) الأنفال : ١٦ .

(٤) آل عمران : ٩٠ .

(٥) الفرقان : ٧٢ .

(٦) البقرة : ٢٣٥ .

(٧) أى الجماع .

(٨) انظر تعليقنا على الكناية في الآية الكريمة في كتابنا " الإعجاز في نظم القرآن " ص ١١٠ .

وقوله تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾^(١) فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشريتين ، وقوله تعالى . ﴿هَٰنَ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هَٰنَ﴾^(٢) واللباس من الملابس وهى الاختلاط والجماع ، وقوله تعالى: ﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾^(٣) كناية عما تطلب المرأة من الرجل ، وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ شَهِدٌ عَلَيْنَا﴾^(٤) أى لقرواحهم فكنى عنها بالجلود ، وقوله تعالى : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾^(٥) كنى به عن مصيرهم إلى العثرة ، فإن الورق إذا أكل انتهى حاله إلى ذلك ، وقوله تعالى : ﴿الْحَبِيبَاتُ لِّلْخَافِئِينَ﴾^(٦) يريد "الزناة" وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهَتَانِ يَفْهَوْنِهِ بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَأَرْجُلَيْهِمْ﴾^(٧) فإنه كناية عن الزنا ، وقيل أراد طرح الولد على زوجها من غيره ، لأن بطنها بين يديها ورجليها وقت الحمل .

٥- تحسين اللفظ كقوله تعالى : ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾^(٨) فإن العرب كانت من عادتهم الكناية عن حرائر النساء بالببيض ، قال امرؤ القيس :

وبيضه محبر لا يران حياؤها تمتعت من لموبها غير معجل

٦- قصد البلاغة كقوله تعالى : ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْخَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مَبِينٍ﴾^(٩) فإنه سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن فى الزفة والتزين والتشاغل عن النظر فى الأمور ودقائق المعانى ، ولو أتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك ، والمراد نفس ذلك

(١) البقرة : ١٨٧ .

(٢) الآية السابقة .

(٣) يوسف : ٢٣ .

(٤) فصلت : ٢١ .

(٥) القيل : ٥ .

(٦) النور : ٢٦ .

(٧) الممتحنة : ١٢ .

(٨) الصافات : ٤٩ .

(٩) الزعفران : ١٨ .

"أعنى الأئمة" عن الملائكة ، وكونهم بنات الله تعالى الله عن ذلك .

٧- قصد المبالغة في التشنيع كقوله تعالى حكاية عن اليهود - لعنهم الله :- "وقالت اليهود يدا الله مغلولة"^(١) فإن الغل كناية عن البخل ، وقوله تعالى : ﴿ بل يدها ميسورتان ﴾ كناية عن كرمه .

ثم أشار إلى لطيفة في الآية الكريمة ، لا يدركها إلا أصحاب الأذواق السليمة العالمون بأساليب اللغة العربية ، الواقفون على دقائقها وأسرارها الفاهمون لأهدافها ومقاصدها ، المتذوقون لحلاوتها فقال : "وثنى اليد وإن أفردت في الآية ليكون أبلغ في السخاء والجود"

٨- التنبيه على مصيره كقوله تعالى : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾^(٢) أى جهنمى مصيره إلى اللهب ، وقوله تعالى : ﴿ جمالة الخطب ﴾^(٣) أى غامة ، ومصيرها إلى أن تكون حطباً للجهنم .

هذا ما قدمه الزركشى - رحمه الله - للكناية ، وإن من يتأمل حديثه عن الكناية يرى أنه سلك في دراستها الاتجاه الأدبي فكشف القناع عن أسبابها في القرآن الكريم بأسلوب أدبي رائع ، وبطريقة سهلة ميسورة لا تكدر الذهن ، ولا ترهق الفكر فهو يذكر السبب ثم يورد له الكثير من الشواهد القرآنية ثم يبين موضع الكناية فيها ، وفي بعض الأحيان يتعرض لبعض اللطائف الأدبية التي تكمن في الكناية .

وهو في دراسته للكناية قد تأثر عن سبقه من العلماء ، وبخاصة الشيخ عبد القاهر الجرجاني والأديب الكبير ابن أبي الإصبع المصري ، فتعريفه للكناية هو تعريف الشيخ عبد القاهر ، والأسباب التي ذكرها قد سبقه إليها ابن أبي الإصبع في كتابه " بديع القرآن " إلا أن الزركشى قد توسع فيها ، وأتى لها بالكثير من الشواهد القرآنية .

(١) المائة : ٦٤ .

(٢) المسد : ١ .

(٣) المسد : ٤ .

وقد امتازت دراسته للكناية بالإحاطة والشمول ، فقد ذكر أقوال العلماء في كونها حقيقة أو مجاز إلا أنه لم يفصح عن رأيه في النهاية وهذا مما يؤخذ عليه وامتازت دراسته أيضاً بالدقة والأمانة العلمية فهو يعترف بأنه استفاد من العلماء الذين سبقوه ، وينسب الأقوال إلى أصحابها فيقول عند تعريفه للكناية: هي عند علماء البيان ... إلخ ويقول في معرض حديثه عن الكناية هل هي حقيقة أو مجاز : قال الطرسوسي ... وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام وينقل كلامهم بصدق وأمانة .

ونستطيع أن نحمل الجديد الذي قدمه الزركشي للكناية فيما يلي :-

١- التوسع في ذكر أسبابها في القرآن الكريم

٢- الإكثار من الشواهد القرآنية .

ويؤخذ عليه أنه لم يكشف لنا عن بلاغة الكناية ، ولم يحدثنا عن أثرها في الأساليب العربية ، وإن كانت الأسباب التي ذكرها فيها إشارة إلى هذا الأثر.

كما يؤخذ عليه أيضاً أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض ، ولكن من يتأمل حديثه عن الكناية ، وتعليقه على بعض شواهدا يتبين له أنه لا يرى فرقا بينهما ، بل هو يجعل التعريض قسما من أقسام الكناية ، ولونا من ألوانها ، يتضح هذا من تعليقه على قوله تعالى ﴿فَخَصَّمَانْ بَغِيْ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾^(١) فقد قال معلقاً عن هذه الآية مبيناً موضع الكناية فيها : " فكنى داود بخصم على لسان ملكين تعريضاً " فتعليقه هذا يستفاد منه أن التعريض قسم من أقسام الكناية وهو في هذا يتابع السكاكي في جعله التعريض قسما من أقسام الكناية ، كما يؤخذ عليه أنه ذكر أقوال العلماء في الكناية هل حقيقة أو مجاز ، ولم يفصح عن رأيه ، وهذا يتنافى وطبيعة الباحث المتعمق ، فمهمة الباحث لا تقف عند حد الجمع والنقل بل تتعدى هذا إلى الدراسة الواعية المستفيضة ، والمناقشة العلمية الهادفة المنصفة ، والخروج في النهاية بالنتائج المفيدة ، وترجيح بعض الآراء على بعض بالأدلة والبراهين أو الخروج برأى جديد مؤيد كذلك بالحجج والبراهين.

(١) سورة ص: ٢٣ .

أصحاب البديعات والكناية

لقد اتجه بعض المتأخرين من علماء البلاغة فى النصف الأخير من القرن السابع
المحرى إلى صوغ الصور البلاغية فى منظومات شعرية ليسهل حفظها مضمين كل بيت
من هذه المنظومات لونا من ألوان البديع ، ومن أجل هذا سموا بأصحاب البديعات ،
وكان لهم منهج خاص يهدف إلى الاستيعاب والتمكين من الحفظ ، ومن أشهر هؤلاء
على بن عثمان الأربلى المتوفى سنة ٦٧٠هـ ، وصفي الدين الخلى المتوفى سنة ٧٥٠هـ ،
وحابر الأندلسى المتوفى سنة ٨٧٠هـ ، وعز الدين الموصلى المتوفى سنة ٨٧٩هـ وابن
حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧هـ ، وعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢هـ .

ولعل بديعية لم تظفر بالشهرة كما ظفرت بديعية ابن حجة الحموى السالفة
الذكر ، قد جعلها فى مئة وأثنين وأربعين بيتا استهلها بقوله :
لى فى ابتداء مد حكم ياعرب ذى سلم براعة تستهل الدمع فى العلم

وهو فيها يقتدى بعز الدين الموصلى فى تضمين ألفاظ البيت ما يشير إلى المحسن
البديعى الذى بناه عليه ، وصنف عليها شرحا مطولا سماه " خزانة الأدب " وقد طبع
مراراً ونراه فى مقدمته لهذا الشرح يتوه بصفى الدين الخلى وبديعته وما اشتملت عليه من
رقة ، بينما يصف بديعية عز الدين الموصلى بالنقل والتكلف الشديد ، ويقول: " إنه لذلك
انبرى يصنع بديعية ، تتضمن أبياتها الإشارة إلى المحسنات البديعية على طريقته ، وفى
الوقت نفسه تجرى فيها الرقة والسلامة على مثال بديعية صفى الدين .

وإن من يقرأ بديعية ابن حجة ، وشرحها المطول المسمى بخزانة الأدب يرى أنها
مع عزائنها كفيفة بتمثيل منهج أصحاب البديعات فى الصور البلاغية التى منها الكناية ،
ولذلك فإننى سأكتفى بذكر الكناية عند ابن حجة وموقفه منها ، وطريقة تناوله لها
ليكون مثالا لهذا المنهج ، ودليلا على هذا المذهب .

ابن حجة الحموى والكناية

قال ابن حجة^(١) :

قالوا : طويل بجاد السيف . قلت : وكم : لناره ألسنة تكتى عن الكرم

هذا بيت بديعته ، ويعلق عليه قائلا : الكناية هى : الإرداف بعينه عند علماء البيان، إنما علماء البديع أفردوا الإرداف عنها .

ثم عرفها بقوله^(٢) : " الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو ردفه فى الوجود فيسمى به إليه ، ويجعله دليلا عليه " ثم وضع التعريف فقال : مثال ذلك قولهم : "طويل النجاح كثير الرماد" يعنون بذلك أنه طويل القامة كثير القرى ، فلم يذكروا والمراد بذكره الخاص به ولكن توصلوا إليه بمعنى آخر، هو رديفه فى الوجود ، ألا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاح ، وإذا كثرت القرى كثرت الرماد .

ثم أورد لها بعض الشواهد الشعرية ، ووصفها بالحسن ، من غير أن يذكر السبب فى ذلك فقال : " ومن أحسن الأمثلة على هذا النوع قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما كنوغل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ثم بين الكناية فى البيت فقال : " أراد أن يذكر طول جدها ، فأتى بتابعه ، وهو "مهوى القرط"

ومن شواهد التى أوردتها ، ووصفها بالحسن والجودة قول ليلى الأخيلى :

ومحرق عنه القميص تخاله وسط البيوت من الحياء سقيما

ثم بين الكناية فى البيت مثلما فعل فى البيت السابق فقال : "كنت عن الإفراط فى

(١) معرانة الأدب ص ٤٤٠ .

(٢) معرانة الأدب ص ٤٤٠ .

الجود يغرق القميص بلذب العفاة له عند ازدحامهم عليه لأخذ العطاء" .

ثم وضع مقياسا لبلاغة الكناية فقال^(١): "والأيدع أن يكسى المتكلم عن اللفظ القبيح بالحسن ثم استشهد على ذلك بآيات من القرآن ، فقال "والمعجز فى ذلك قوله تعالى : ﴿كَانَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾^(٢) كناية عن الحدث ، وقوله جل جلاله : ﴿قَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾^(٣) يريد بذلك ما يكون بين الزوجين ثم علق على هذين الشاهدين القرآنيين فقال : "وعلى الجملة لا نجد معنى من هذه المعانى فى الكتاب العزيز إلا بلفظ الكناية ، لأن المعنى الفاحش متى عبر المتكلم عنه بلفظه الموضوع له كان الكلام معييا من جهة فحش المعنى ، ولهذا عاب قدامة على امرئ القيس قوله :

فمثلك حيلى قد طرقت ومرضع
إذا ما يكى من تحتها انصرفت له
فألميتها عن ذى عمائم محول
بشق وتحتى شقها لم يحول

قال - أعنى - قدامة : "عيب هذا الشعر من جهة فحش المعنى ، والقرآن منزّه عن ذلك ، ولو استعار امرؤ القيس لمعناه الفاحش لفظ الكناية لسلم من العيب ، وهذا القدر ينتقد على مثله "

ثم أورو للكناية شواهد من السنة الشريفة فقال : " وفى السنة النبوية من الكتابات مالا يحصى كقوله صلى الله عليه وسلم : "لا يضع العصا عن عاتقه" كناية عن الضرب أو كثرة السفر"

هذا ما قدمه ابن حجة للكناية ، وإن من يتأمل جهده فى هذا الميدان لا يرى فيه جديدا فهو عبارة عن جمع لأراء السابقين ، وشواهدهم ، ولذلك لم تتقدم أو تتطور الكناية على يديه ، بل وقف بها عندما وقف السابقون .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن أثر أصحاب البديعيات وعلى رأسهم ابن حجة فى

(١) عزارة الأدب ص ٤٤٠ .

(٢) المائدة : ٧٥ .

(٣) النساء : ٢٦ .

الكتابة بخاصة ، والصور البلاغية بعامة أثر ضئيل ، لأن هدفه - كما أسلفنا - كان الاستيعاب والتمكين من الحفظ ، فضلا عن أن هذا المنهج الذى سلكه أصحاب البديعات يقوم على الاختصار الشديد ويحتاج عمله إلى الشرح ، ولذلك فإنه أصاب الصور البلاغية بالتعقيد والجمود ، وأفقدتها الكثير من حسناتها وجمالها ، ورونتها وبهائتها .

ملاحظاتى على الكتابة عند القدماء

من خلال دراستى للكتابة عند القدماء ، واطلاعى على جهودهم التى بذلوها ووقوفى على آرائهم ، وتعرفى على اتجاهاتهم ، لاحظت عدة أمور أجملها فيما يلى :

- ١- لقد تطورت الكتابة على أيدي القدماء من العمود إلى العمود إلى الوضوح ، ومن العمود إلى التخصيص ، فقد كانت عند أبى عبيدة غامضة عامة، فهى عنده ستر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلى ، واستمرت فى غموضها وعمومها عند ابن المعتز ، وأبى هلال ، وابن رشيق ، وابن سنان ، ثم عطلت خطوات واسعة على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فأخذت صورة المصطلح العلمى ، حيث اشترط فيها العبور إلى المعنى المقصود باستعمال معنى غير مقصود ، ولكنه ردف له وتاليه ، ثم دخلت فى دائرة المجاز على يد ابن الأثير ، فقد حملها على جانبى الحقيقة والمجاز ، ثم خصصت تخصيضا تاما على يد الخطيب القزوينى ، وبذلك صارت جميع الدراسات حولها تدور فى إطار ما فعله الخطيب .
- ٢- دراسة القدماء للكتابة تكاد تكون فى أغلب الأحيان دراسة تقليدية ، فالمتأخر يقلد المتقدم فى التعريف ، والتقسيم ، وينقل شواهد ، بل وينقل تعليقاته على هذه الشواهد ، دون أن يأتى بجديد يستحق الذكر والتسجيل، وفى بعض الأحيان قد يتصرف، ولكن تصرفه يكون محصورا فى الصياغة بأن يستبدل لفظا بآخر ، ومن أجل ذلك كان أثرهم فى التجديد ضئيلا ، باستثناء الشيخ عبد القاهر الجرجاني وابن الأثير فقد كانت دراستهما للكتابة فيها الكثير من التجديد ، والابتكار فى الفكرة وفى التعريف، وفى الشواهد وفى التناول والصياغة ، والأسلوب ، فعبد القاهر هو الذى وضع أسس الاتجاه الأدبى الذى سار عليه الكثيرون من العلماء فى تناولهم للصور البلاغية قديما وحديثا ، وقد امتازت دراسته بالعمق والتحليل والنقد الذى

يهدف إلى إظهار ما في الأساليب العربية من احسن والجودة ، أو القبح والرداءة ، وابن الأثير قد وضع أسس اتجاه جديد في الدرس البلاغي ، فقد مزج الاتجاهين الأدبي والكلامي واستخلص منهما اتجاهًا وسطًا كان له أثر كبير في إثراء الدرس البلاغي ، وتحديد شباب الصور البلاغية ، وإظهار محاسنها ومفاتيحها ، بعد أن هُرمَت وشاعت على يد السكاكي الذي مزق أوصالها ، وشوه حسناتها وجمالها ، وألبسها ثوبًا قائمًا من المنطق والفلسفة .

٣- لم يكشف لنا أغلب القدماء عن أثر الكناية في الأساليب العربية وهذا مما يؤخذ عليهم ، فالكناية تعبير في جميل ، وصورة بيانية رائعة، تكسب المعنى قوة ولطافة ، والأسلوب رونقًا وبهاء ، يسلكها الأدباء للتعبير عما يدور في نفوسهم من الخواطر، ويحيي في صدورهم من المعاني ، فكان ينبغي للعلماء القدماء أن يكشفوا لنا عن حسناتها وجمالها ، ومدى ماتنضيقه على الأسلوب من الروعة واللطافة والقوة ، ولكنهم لم يفعلوا وأهملوا هذا الجانب الجمالي الذي هو المقصود من دراسة الصور البيانية في الأساليب العربية .

٤- حلت دراسة القدماء للكناية في أغلب الأحيان من النقد الذي يقوم على الذوق والإحساس ويهدف إلى إظهار ما في الأساليب من احسن والجودة ، أو القبح والرداءة عن طريق الموازنة بين الصور البلاغية في الأساليب العربية والمفاضلة بينها على أسس نقدية سليمة ، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالنفس البشرية ، وتراعى فيها مقتضيات الأحوال ، وحسن الصياغة وجمال التعبير وحسن الأداء .

٥- حلت دراسة القدماء كذلك من التحقيق والتمحيص ، ويظهر هذا واضحًا في عدم نسبة أكثر الشواهد إلى أصحابها ، ولعل السبب في هذا هو التقليد الذي سيطر على الكثير منهم ، فأخذ المتأخر ينقل شواهد من سبقه ، ولا يكالِف نفسه مؤونة البحث عنها في مصادرها ، ومن أجل ذلك فإن كثيرا من كتب القدماء المطبوعة تحتاج إلى تحقيق .

٦- دراسة القدماء للكناية لم تتوفر فيها الأمانة العلمية ، فقد أولعوا بالتقليد ، فكان المتأخر ينقل عن المتقدم تعريفه وشواهد وأقسامه ، دون أن يشير إلى ذلك ، وهذا

يتنافى مع الأمانة التي تقتضيها البحوث العلمية ، فللباحث أن ينتفع بأفكار من سبقه أو عاصره من العلماء ، ويستفيد من دراسته بشرط أن يشير إلى ذلك ، أما أن يحرك الإشارة، وينسب إلى نفسه ما ليس له فهذا اعتداء ، وجحد للفضل ، ونكران للجميل ، وإخلال بواجب الأمانة العلمية .

٧- دراسة القدماء للكتابة بخاصة والصور البيانية بعامة ، لم تكن دراسة موضوعية منهجية تقوم على حسن التويب والتنسيق ، وإنما كانت في كثير من جوانبها دراسة مشوشة ، لا تهتم بجمع أطراف الموضوع الواحد في موضع واحد ، بل ترى الموضوع الواحد يذكر في مواضع متفرقة ، وهذا يؤدي إلى تشتيت ذهن القارئ ويصيبه بالملل والسآمة ويجعل محصوله العلمي ضئيلا ، وأثره قليلا ، وأكبر مثال على هذا كتابا عبد القاهر الجرجاني " الدلائل والأسرار " فإِنَّ الموضوع الواحد يتكرر فيها في أكثر من موضع ، حتى ليصبح من الصعوبة على القارئ أن يلم بأطراف الموضوع المتشعبة ، والمتناثرة في صفحات الكتاب .

٨- دراسة القدماء للكتابة وسائر الصور البلاغية تكثر فيها الخلافات حول التعريفات والتقسيمات والتفريعات ، وهذه الخلافات قد جنت على الصور البلاغية ، فأطفاقت أنوارها ، وأصابها أزهارها الجميلة بالذبول والجفاف ، ومزقت أوصالها ، وشوهت جمالها ، وأكبر مثال لهذا ما نراه في كتاب " الطراز " للعلوى ، فقد تتبع تعريفات السابقين ، ونقدها نقدا حكما فيه المنطق ، واعتمد فيه على الفلسفة ، وأهمل الناحية الجمالية ، وكم كنت أود أن يكرس جهده للناحية الجمالية التي هي المقصودة من دراسة الصور البلاغية ، ولكن لم يفعل ولعل السبب في ذلك أن القدماء قد تأثروا بالفلسفة والمنطق ، فانعكس هذا التأثير على دراستهم للصور البلاغية ، فجاءت أساليبهم شاحبة باهتة ، وجاءت دراساتهم جافة قائمة ، تكذب الذهن ، وترهق الفكر .

٩- لم يتعرض أحد من القدماء لدراسة الكتابة في القرآن الكريم دراسة مستقلة ، تكشف عن أثرها ، وفائدتها ، وسر جمالها وخلودها ، بل شغلوا أنفسهم بدراسات فلسفية عقيمة كالبحت في كونها حقيقة أو مجاز ، وأقاموا الدنيا وأقعدوها في هذا الجانب ، وأكثروا من الجدل في هذا الميدان ، وأهملوا الناحية الجمالية ، ويستثنى

منهم فى هذه الناحية الشيخ الزركشى ؛ فقد كشف عن بعض فوائدها فى القرآن الكريم بأسلوب أدبى ، وبطريقة سهلة ميسورة ، ولكنه لم يكشف لنا عن سر جمالها وعظمتها فى القرآن الكريم .

١٠ - كذلك لم يتعرض أحد من القدماء للحديث عن الكناية فى القرآن الكريم من حيث الإعجاز هل هى معجزة أولا ؟ وهذا مما يؤخذ عليهم، فإن الهدف من دراسة البلاغة هو الوقوف على سر الإعجاز فى القرآن الكريم ، فكان من الواجب على هؤلاء القدماء الأجلاء أن يدرسوا هذه الصور البلاغية فى القرآن الكريم من هذه الناحية دراسة وافية مستفيضة ولكنهم لم يفعلوا ، ويستثنى منهم فى هذه الناحية الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، فقد أشار إلى هذا إشارة جزئية حينما تعرض لبيان الاستعارة فى قوله تعالى: " واشتعل^(١) الرأس شيئا " فقد أرجع السر فى جمال الاستعارة وشرفها إلى نظمها الذى هو فوق مقدور البشر ، ووقف عند هذه الجزئية، ولم يجاوزها إلى غيرها من جزئيات البيان العربى ومن هنا نلوك أن عبد القاهر يرى أن الاستعارة - وهى صورة من صور البيان العربى - معجزة وأن إعجازها راجع إلى نظمها ولكنه - كما أسلفنا - وقف عند هذه الجزئية فقط^(٢)

١١ - سلك القدماء فى دراسة الكناية بخاصة والصور البلاغية بعمامة أربعة اتجاهات هى :

١ - الاتجاه الأول : تغلب عليه الناحية الأدبية ، ويعتمد إلى حد ما على الذوق والإحساس ، ومن رجال هذا الاتجاه ابن المعتز ، وأبو هلال العسكري ، وابن رشيق القيرواني ، والشيخ عبد القاهر الجرجاني .

٢ - الاتجاه الثانى : تغلب عليه الناحية الكلامية ، ويعتمد على العقل والمنطق ، ومن رجال هذا الاتجاه ، قدامة بن جعفر ، وابن سنان الخفاجى ، والسكاكى ، والخطيب القزوينى .

(١) انظر ص ٨٩ ، ٨٠ من دلائل الإعجاز ، الآية فى سورة مريم : ٤ .

(٢) لقد تحدثت عن الإعجاز فى الصور البلاغية ، ووفيته حقه على قدر استطاعتى فى كتابى "الإعجاز فى نظم القرآن " فى ص ٩١ - ١١١ فليرجع إليه القارىء الكريم إن شاء .

- ٣- الاتجاه الثالث : هو مزيج من الاتجاهين الأدبي والكلامي ، وهذا الاتجاه يعتمد على الذوق والعقل معا ، ويهتم بالناحيتين الجمالية والعلمية، ومن رجال هذا الاتجاه ابن الأثير ، وابن أبي الإصبع المصري ، وعز الدين بن عبد السلام .
- ٤- الاتجاه الرابع : اتجاه أصحاب البديعيات ، وهو اتجاه يكاد يكون امتداد الاتجاه الكلامي ، إذ هو اتجاه يهدف إلى الاستيعاب والتمكين من الحفظ ، ويهمل في أغلب الأحيان الناحية الجمالية .

الفصل الثانى

الكناية فى العصر الحديث

لقد تحدثت فى الفصل الأول من هذا البحث عن الكناية عند القدماء من علماء البيان العربى . فكشفت النقاب عن آرائهم ، وأمطت اللثام عن جهودهم ، ثم سجلت فى نهاية الفصل ملاحظاتي على دراساتهم ، وفى هذا الفصل سأحدث بعون الله وتوفيقه عن الكناية عند المحدثين ، ونعنى بهم علماء البيان فى العصر الحديث ، ومن أشهر هؤلاء العلماء ، الشيخ المرفصى ، والشيخ المرازى ، والشيخ على الجارم ، والدكتور أحمد بدوى ، والدكتور بدوى طبانة ، والشيخ أحمد الهاشمي .

المرفصى والكناية

لقد تحدث حسين المرفصى عن الكناية فى كتابه " الوسيلة الأدبية للعلوم العربية " فعرّفها بقوله :^(١) "هى لفظ أريد به لازم معناه ، مع جواز إرادته أيضا ، فيكون المراد إفادتهما جميعا" ثم قسمها إلى ثلاثة أقسام على نحو ما فعل السكاكي ، ثم بين أنواعها من الإشارة والرمز ، والامعاء ، مرسما فى ذلك خط السكاكي ، ثم أورد بعض الشواهد الأدبية وعلق عليها بأسلوب أدبي رائع ، موضحا موضع الكناية ، كاشفا عن حسن تصويرها ، وبراعتها .

ملاحظاتي على الكناية عند المرفصى :

١- لقد ترسم الشيخ المرفصى - رحمه الله - خطأ السابقين ، واقتفى أثرهم فى دراسته للكناية فتعريفه لها تعريف الخطيب الفزويني ، وتقسيماته هى تقسيمات السكاكي ، والأنواع التى ذكرها ، وجعلها أقساما للكناية قد سبقه إليها السكاكي وشواهد التى أوردها هى شواهد السابقين ، وليس له فيها من جديد يذكر سوى تعليقه عليها بأسلوبه الأدبي الرائع الأخاذ .

(١) الوسيلة الأدبية للعلوم العربية - ج ٢ - ص ٢٦ .

٢- امتازت دراسته للكتابة بتجنب الخلافات التي كثيرا ما كان يثيرها السابقون .

٣- كما امتازت طريقته بحسن العرض وجمال الصياغة .

وبذلك نستطيع أن نحصيه جديده الذي قدمه للكتابة في ثلاثة أمور :

(أ) تجنب الخلافات التي كثرت في كتب السابقين ، ومميزت بها دراستهم .

(ب) تعليقه على شواهد السابقين بأسلوب أدبي رائع .

(ج) الكشف عن جمال الكتابة وبراعتها بطريقة أدبية مشوقة .

الهاشمي والكتابة:

تحدث المرحوم أحمد الهاشمي عن الكتابة في كتابه " جواهر البلاغة " فعرّفها بقوله^(١) : " هي لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته " ثم أورد لها كثيرا من الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومنظوم كلام العرب ومنثوره ، ثم علق على هذه الشواهد " مبينا موضع الكتابة فيها فمن شواهد القرآنية قوله تعالى ﴿ اِجْعَلْ لِّكُلِّ شَيْءٍ ظَهْرًا ﴾^(٢) فيها فممن شواهد القرآنية قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدَسْرًا ﴾^(٣) كتابة عن السفينة، ومن شواهد الشعرية التي أوردتها قول الخضرى :

قد كان تعجب بعضهم برايتي حتى رأيت تنحنحى وسعالي

كتابة عن كبر السن .

ومن شواهد النثرية التي أوردتها ماروى أن خلافا وقع بين بعض الخلفاء ، وتديم

(١) جواهر البلاغة ص ٣٤٦ .

(٢) الحجرات : ١٢ .

(٣) القمر : ١٣ .

له في مسألة فاتفقا على تحكيم بعض أهل العلم فأحضر ، فوجد الخليفة مخطئا فقال :
القائلون يقول أمير المؤمنين أكثر " يريد الجهال " ومن شواهد الثرية أيضا قول العرب في
أمثالهم : " قلبت له ظهر أجن " كناية عن تغيير المودة .

ثم استطرذ في سرد ما ورد عن الأدباء من الكنايات اللطيفة في شتى المعاني
والأغراض ، مما يدل على سعة اطلاعه ، وطول معاشرته لأساليب اللغة العربية .

ثم ذكر تقسيمات الكناية ، مرسما في ذلك خطا السكاكي مع الإكثار من
الشواهد ، ثم أفاض اللثام عن بلاغة الكناية بما لا يخرج عما قاله القدماء من علماء البيان .

ومن هنا نستطيع أن نقول منصفين : إن الهاشمي - رحمه الله - قد ترسم خطا
السابقين في دراسته للكناية ، فتعريفه ليس فيه جديد يشير في النفس دافعا إلى معرفته
وشوقا إلى استجلاء جماله ، وإنما هو نسخة مكررة من تعريفات السابقين ، وتقسيماته
تقسيمات السكاكي ، وليس له من جديد سوى الإكثار من الشواهد وتجنب الخلافات ،
وحسن العرض ، وجمال الصياغة .

المراعي والكناية

تحدث الشيخ مصطفى أحمد المراعي - رحمه الله - عن الكناية في كتابه " علوم
البلاغة " فعرّفها لغة بقوله : " الكناية لغة أن تتكلم بشيء ، وتريد غيره ، وقد كنوت
بكذا عن كذا ، أو كنيت إذا تركت التصريح به وهو في إثبات معناها اللغوي يسلك
منهج اللغويين القدماء ، بل يستشهد على أصل اشتقاقها بما استشهدوا به ، ثم يورد
تعريفها الاصطلاحي فيقول : " وفي الاصطلاح تطلق على معنيين " :-

(١) المعنى المصدرى الذي هو فعل المتكلم ، أعنى ذكر اللفظ الذي يراد به لازم معناه مع
جواز إرادته معه .

(٢) اللفظ المستعمل فيما وضع له ، لكن لا ليكون مقصودا بالذات بل لينتقل منه إلى
لازمه المقصود لما بينهما من العلاقة وال لزوم العرفي .

ثم يذكر تقسيماتها مرسما في ذلك خطا الشيخين السكاكي والخطيب القزويني

ثم يستشهد لهذه الأقسام بما استشهد به السابقون ، ثم يعود فيقسمها إلى حسنة وقبيحة ، ثم يفرق بينهما بأن الحسنة ما جمعت بين الفائدة ولطف الإشارة ، والقبيحة ما عجلت عن الفائدة المرادة من الكناية ، ثم يستشهد لهما بشواهد السابقين ، ثم يكشف التقارب عن بلاغة الكناية بما لا يخرج عما ذكره السابقون من علماء البيان .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشيخ المراغي - رحمه الله - لم يقدم للكناية حديثا يستحق الذكر والتسجيل : فلقد ترسم - كغيره من علماء عصره - خطأ السابقين ، واقتفى أثرهم وقلدتهم في كل شيء ، فقد عرفها بتعريفين لم يخرجها عن تعريفى عبد القاهر والسكاكى ثم نقل عن السكاكى جميع تقسيماتها بصدق وأمانة ، ثم استشهد لهذه الأقسام بشواهد السابقين ، ثم نقل عن ابن الأثير تقسيمها إلى حسنة ومعيبة ، وعندما تكلم عن بلاغتها نقل ما قاله الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ولم يزد شيئا ، وكل ما فعله الشيخ المراغي هو حسن التنسيق والتبويب والبعد عن الخلافات التى أولع بها السابقون .

الجارم وأمين والكناية

تحدث الأستاذان المرحوم على الجارم ، والأستاذ مصطفى أمين عن الكناية فى كتابهما " البلاغة الواضحة " بطريقة جديدة لم يسبقا إليها ، فبدعا بعرض كثير من النصوص^(١) الأدبية : قرآنية ، وشعرية ، ونثرية ، ثم بحثا هذه النصوص بحثا دقيقا من حيث اللفظ والمعنى ، ثم بينا مواضع الكناية فيها ، وكشفا عن حسناتها وبراعة تصويرها ثم وضعنا تعريفا لها هو : الكناية لفظ أطلق ، وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى ، ثم قسما الكناية إلى ثلاثة أقسام .

١- كناية عن صفة

٢- كناية عن موصوف

٣- كناية عن نسبة

(١) البلاغة الواضحة ص ١٢٣.

مترسمين فى ذلك خطأ السكاكى ، ثم تحدثنا عن بلاغة الأسلوب الكنائى وأثره فى حسن الصورة ، وتصوير المعنى .

وحصرنا بلاغة الكناية فيما يلى :-

١- الكناية تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية فى طيها برهانها .

٢- تبرز لك المعانى المجردة فى صورة المحسات .

٣- يمكنك من أن تشفى غلتك من خصمك من غير أن تجعل له سبيلا عليك ودون أن تحنث وجه الأدب

٤- التعبير عن القبيح بما تسبغ الأذان سماعه .

ثم أوردنا كثيرا من الشواهد الأدبية لهذه الأسرار البلاغية ، وعلقا عليها مبین ماتضمنته هذه الشواهد من مظاهر الجمال والسحر الخلال بأسلوب أدبى رائع أعاد .

ملاحظاتى على الكناية عند الجارم وأمين

من خلال دراستى للكناية عند هذين الأستاذين الكبيرين لاحظت عدة أمور هى :-

١- لقد ابتكرا طريقة جديدة فى تناول الدرس البلاغى فيها الكثير من المزايا التى رفعت من شأن البلاغة العربية ، وأخذت بيدها نحو التقدم والرقى ومن هذه المزايا مايلى:-

(أ) إن هذه الطريقة تعمل على غرس ملكة البلاغة فى نفس القارئ ، وتطبعه على الذوق العربى ، وتبصره بأسرار الكلام البليغ ، وما فيه من ضروب الحسن وبدايع البيان .

(ب) إنها تعمل على تربية ملكة الذوق الصحيح .

٢- أكثرنا من الشواهد الأدبية ، وحللناها تحليلاً أدبياً رائعاً ، وأوقفنا القارىء على مواطن الحسن والجمال فيها .

٣- تجنبنا الخلافات التي أكثر منها السابقون ، واتسمت بها دراستهم .

٤- ركزنا جهودهما على الناحية الجمالية التي هي المقصودة من دراسة الصور البلاغية .

٥- خلت دراستهما في أكثر جوانبها من الفلسفة والمنطق .

٦- مع ابتكارهما لمنهج جديد في تناول الدرس البلاغي ، إلا أنهما لم يسلما من سيطرة المنهج القديم عليهما ، فلقد تعرضا لتقسيمات السابقين ، وأثبتنا في هامش الصفحات فقد أثبتنا أن الكناية إن كثرت وسائلها سميت تلويحاً وإن قلت وخفيت سميت رمزاً ، وإن قلت الوسائل ووضحت أو لم تكن سميت إيماء وإشارة كما أنهما جعلتا للتعريض نوعاً من الكناية .

الدكتور أحمد بدوي والكناية

تحدث الدكتور أحمد بدوي - رحمه الله - عن الكناية في كتابه " الأسس النقدية لدى علماء العربية " فكشف النقاب عن منزلتها في البيان العربي، وأثرها في الأسلوب فذكر^(١) أنها لون من ألوان الخيال ، عني بها نقاد العرب ، وعرفوا لها مكانها في الإيضاح والتأثير ، فإن الشعراء يذهبون أحياناً مذهب الكناية والتعريض ، وهم إذا فعلوا ذلك بدت هناك عحاسن تملأ الطرف ودقائق تعجز الوصف ، ورأيت هناك شعراً شاعراً ، وسحراً ساحراً ، وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المقلق والخطيب المصقع . ثم ذكر أن العرب وضعوا الكناية في مكان أرفع من التصريح ، وعلل ذلك بأن الأديب في الكناية يقرن دعواه إثبات أمر من الأمور ، مما يجعل النفس ترتاح إلى إثباته ، وتطمئن إلى هذا الإثبات ؛ إذ كأنه أتى ببرهان على دعواه ، وهذا واضح عندما يكون مراد الشاعر إثبات صفة أو نسبة ، فإذا كنى عن ذات اختار أنسب مافي هذه الذات ، وماله دخل في الحكم - فجعله كناية عنه ، اقرأ قول الشاعرة

(١) أسس للنقد الأدبي عند العرب ط الثانية ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

بييت بمنجاة من اللوم بيتهما إذا ما بيوت بالملامة حلت

فنجده قد تلتطف في وصف هذه المرأة بالعفة ، فذكر ماتطمئن به النفس إلى حسن سلوكها ، وعفة نفسها ، وهو أن الناس لا يتخذونها مضغة في أفواههم ولا يتركون اسم بيتهما مقترنا بما يسيء إلى سمعتها .

ثم بين أن نقاد العرب عابوا الكناية ، إذا كان بين المعنيين وسائط كثيرة بحيث يغمض الشيء المطلوب ، ولا يظهر بسرعة ، كما كرهوا الكنايات التي تبعث في النفس آثاراً غير رضية كقول المتنبي :

إنني على شغفى بما في حمري لأعف عما في سراويلاتي

فهذه كناية عن التزاهة والعفة ، إلا أن الفجور أحسن منها ، وماذا لك إلا لتزول قدرها ، وسوء تأليفها .

ودراسة الدكتور أحمد بدوى - رحمه الله - للكناية دراسة نقدية تحليلية تهدف إلى الكشف عما في الأساليب العربية من الحسن والجمال ، أو القبح والرداءة ، وهذه الدراسة قد سبقه إليها القدماء ، ومن هنا نستطيع أن نقول : إن أثر الدكتور بدوى في الكناية ضئيل فليس له من جديد سوى حسن العرض ، وجمال الصياغة .

الدكتور بدوى طبانة والكناية

تحدث الدكتور بدوى طبانة عن الكناية في كتابه " علم البيان " فقدم لدراستها بالكلام عن موقعها بين الفنون الأدبية فأتى في هذا التقديم أن الأدب تعبير قولى هدفه الإيضاح في نقل المعانى والأفكار إلى الناس بمثابة في الفكر ، سامية في التعبير ، كما أوضح أن غاية الأديب من أدبه التي يرمى إلى تحقيقها التأثير والإقناع بالفكرة ، وصدق الإحساس حتى تحدث المشاركة بين سامعى أو قارئى أدبه ، وحتى تكون تلك المشاركة مظهراً من مظاهر تقديره ، ولا شك أن هذه الغاية متحققة في جميع الصور البيانية ، وقد يظن غلأن أن أسلوب الكناية من بين الصور البيانية مخالف لما عليه الأسلوب البياني ، فأبان المهدف من دراسة الكناية ، وكيف أنها لا تتعارض مع الوضوح المطلوب من الكلام ،

بأنه لم يقصد بهذا الوضوح التبذل بالكلام ، بل لابد للإنسان أن يجيل فكره في صورة الكناية إلى أن يفهم هدف المتكلم ، وإنما المراد الوضوح الذى يكون معه إعمال الفكر ، وتحريك الخاطر لطلب المعانى .

ثم فرق بينها وبين التعقيد ، بأنها ماكان معناها إلى القلب أسرع من لفظها إلى السمع، ومن هنا يبدو أثر الكناية أو التعريض أو الرمز أو الإيماء في جمال مانتبه من ملكات ، وما تستثير من الأذواق ، ولا يقصد بإخفاء هنا ذلك الذى يصل إلى حد التعمية التى تتعبك ، ثم لا تجدى عليك ، وتورقك ، ثم لا تروق^(١) لك .

ثم كشف النقاب عن بلاغة الكناية فقال: " وأسلوب الكناية فى البلاغة العربية من أهم الأساليب التى يلجأ إليها الأدباء ليحققوا الغاية التى ذكرناها فى هذا الكلام من محاولة إخفاء المعنى الصريح ذلك الإخفاء الذى يجنبهم كثيرا مما ينجشون التصريح به ، أو مما لايرضونه لعباراتهم من الفحش والابتذال ، وهو فى الوقت نفسه يستثير الشوق فى نفس القارئ والسامع ، فيجد كل منهما المتعة الفنية التى يصل إليها بعد البحث والتأمل والإدراك ، فيظل أثرها باقيا فى نفسه ، ويبقى الاستمتاع بها وقتا طويلا^(٢) .

(١) انظر ص ١٧٣ - ١٧٦ من علم البيان للدكتور بدوى طهانة .

(٢) علم البيان ص ١٧٦ .

الفصل الثالث

صور الأسلوب الكنائى

تبلورت جهود البلاغيين فى نهاية المطاف عن تفريع الأسلوب الكنائى بحسب المطلوب - كما يرى السكاكى - إلى ثلاثة أقسام ، واستمرت هذه الأقسام دستورالاً يحيد عنه البلاغيون إلا نادراً .

وها هى الأقسام :

١ - القسم الأول : الكناية المطلوب بها صفة^(١)

وهى نوعان : قريبة ، وبعيدة ، والقريبة نوعان : واضحة وخفية .

أولاً : القريبة :

(١) القريبة الواضحة : وهى التى ينتقل منها إلى المطلوب من أقرب لوازمه إليه من غير واسطة ، وبسهولة ويسر لوضوح التلازم بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى :

ومن شواهد قول الحماسى

كبت الروادف والتدى قمصها	مس البطون وأن تمس ظهرها
وإذا الرياح مع العشى تناوحت	نهن حاسدة وهجن غيوراً

فقد كنى البيت الأول عن نهود ثديها ، وكرر ردفها ، وضمور حصرها حيث أطلق منع الروادف والتدى قمصها من أن تمس الظهر أو البطن لينتقل منه إلى المراد فى سهولة ويسر لوضوح التلازم بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى

(١) المراد بالصفة : المعنى القائم بالغير ، لا خصوص النعت النحوى كالشجاعة ، والجبن ، والكبر والبلبل ، والطول ، والقصر ، والشرف ، والحسنة ، والرفعة ، والضعفة ، وما شاكل ذلك ...

وقول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوقل أبوها وإما عبد شمس وهاشم^(١)

فقله: "بعيدة مهوى القرط" كناية عن طول العنق ، وهي كناية قريبة واضحة لأن الانتقال من: بعد مهوى القرط : إلى طول العنق ، يحصل بسهولة ويسر ، ومن غير حاجة إلى تأمل وفكر .

(ب) القرية الخفية : وهي التي ينتقل منها إلى المطلوب من أقرب لوازمه إليه من غير واسطة مع تأمل وإعمال فكرو روية خفاء التلازم بين المعنى الحقيقي والمعنى الكنائي .

ومن شواهد قول الشاعر :

عريض القفا ميزانه في شماله فقد انحص من حسب القراريط شاربه^(٢)

يصف رجلا بالغياوة ، على طريق الكناية ، لأن "عرض القفا" كناية عن الحمق ، و "ميزانه في شماله" كناية عن البله ، و "انحص من حسب القراريط شاربه" كناية عن البلادة فهذه ثلاث كنايات قريبة خفية ، أما كونها قريبة: فلأن الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الكنائي المراد لا يتوقف على وسائل ، وأما كونها خفية : فلأن الانتقال فيها من المعنى الحقيقي إلى المعنى الكنائي يتوقف على تأمل وإعمال فكر وروية ، فالانتقال من عرض القفا إلى الحمق ، ومن كون ميزانه في شماله : إلى البلاهة ، ومن انحصار شاربه إلى البلادة لا يفهمه كل أحد ، وإن فهمه أحد فبعد بذل مجهود فكري ، ومرجع ذلك إلى أنه لم يشتهر استعمال هذه التراكيب في هذه المعاني عند كل الناس .

ثانيا : البعيدة : هي التي يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقي إلى المعنى الكنائي

(١) القرط : حلي الأذن ، ومهواه : مسقطه من المنكب .

(٢) انحص : انحصر شاربه لكثرة ما يعرض على شفتيه عند الحسب والعد .

بواسطة واحدة أو أكثر .

فمن شواهد الأولى^(١) : ما رواه البخارى ومسلم عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾^(٢) عمدت إلى عقالين ، أحدهما أسود والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتي ، قال: فجعلت أنظر إليهما . فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بالذى صنعت فقال : " إن كان وسادك لعريضا "

والشاهد في قوله - عليه الصلاة والسلام - " إن كان وسادك لعريضا " فهو كناية عن قلة فهمه ، وبين المعنى الحقيقي ، والمعنى الكنائى المراد : واسطة واحدة ، إذ إنه ينتقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا ، ومن عرض القفا إلى المعنى الكنائى المراد . ومن شواهدا أيضا قول أبى تمام :

فإن أنا لم يمدك عنى صاغرا عدوك فاعلم أننى غير حامد

يقول لممدوحه : إن لم أكن أجيد القول فى مدحك إلى الخلد الذى يرغب عدوك على حفظه وترديده ، فلا تعتزنى مادحا لك . بما أنظم فيك .

فقد كنى بحفظ عدو ممدوحه مدحه فيه عن : إجادة شعره فى مدحه ، فبين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى واسطة واحدة ، إذ إنه ينتقل من: حفظ عدو ممدوحه قول الشاعر فيه إلى : إعجابه بقوله ، وينتقل من إعجابه بقوله إلى إجادة شعره فيه ...

ومن شواهد الثانية^(٣) قول نصيب :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم متن ظاهرة

(١) أى التى يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى بواسطة واحدة .

(٢) البقرة : ١٨٧ .

(٣) أى التى يكون الانتقال فيه من المعنى الحقيقى إلى المعنى الكنائى بأكثر من واسطة.

فبابك أسهل أبوابهم وشارك مأهولة عامر
وكليك أنس بالزائر بين من الأم بالابنة الزائرة

فإنه ينتقل من وصف كليه بما ذكر إلى أن الزائر معارف عنده ، ومن ذلك إلى اتصال مشاهدتهم ليلاً ونهاراً ، ومنه إلى لزومهم بابه ، ومنها إلى وفور إحسانه إلى الخاص والعام وهو المقصود .

وقوله ابن هرمة :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قربة الأجل^(١)

فإنه ينتقل من عدم إمتاع العوذ بالفصال إلى : نحرها ، ومنه إلى : كثرة الأكلين ، ومنها إلى : كثرة الضيوف ، ومنها إلى الكرم .

وقول الآخر :

وما يك فى من صيب غزى جبان الكلب مهزول الفصيل

فإن الذهن ينتقل من جبن الكلب عن المبررفى وجه من يقصد داراً هو مقيم على حراستها والعس دونها مع أن ذلك ليس من طبعه ، إلى أنه قد دام زجره وتأديبه حتى تغير عن مجرى عادته ، ثم إلى استمرار موجب نجاحه ، وهو اتصال مشاهدته وجوهاً إثر وجوه ؛ ومن ذا إلى كونه ملجأً للقاصى والدلتى ، ومن ذا إلى أنه مشهور بحسن قري الأضياف .

وكذا ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم ، ومن ذا إلى قوة الداعى إلى نحرها ، مع كمال عنايتهم بالنوق خصوصاً المتألى^(٢) منها ، ومن هذه إلى صرفها إلى الطبائخ ، ومن ذا إلى أنه مضياف .

(١) العوذ - بضم العين - : جمع عاذته وهى الناقة الحديثة النتاج ، الفصال - بكسر الصاد - : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، أى قطع ، ابتاع : اشترى .

(٢) المتألى : من أتلت الناقة : إذا تلاها ولدتها .

٢- القسم الثاني : الكناية المطلوب بها موصوف :

والكناية فى هذا القسم نوعان : قريبة وبعيدة

فالقريبة : هى أن يتفق فى صفة من الصفات اختصاص موصوف معين عارض
فتذكرها متوصلا بها إلى ذكر الموصوف . كقول الشاعر
الضاربين بكلل أبيض مخلم والطاعنين بمجامع الأضغان^(١)

فقد كنى "مجامع الأضغان" عن القلب

وقول شوقي فى محاسن اللغة العربية :

إن الذى ملك اللغات محاسنا جعل الجمال وسره فى الضاد

فقد كنى : بـ "الضاد" عن اللغة العربية ، لأن حرف الضاد من خصائصها التى
تدل عليها .

وقول المتنبي بمدح سيف الدولة لما ظفر بهنى كلاب

فمساهم وبسطهم حرير وصيحهم وبسطهم تراب

ومن فى كفه منهم قنساء كمن فى كفه منهم خضاب

والشاهد فى البيت الثانى ، فقد كنى بمن يحمل قناة عن الرجل ، وكنى بمن فى
كفه خضاب عن المرأة ، فهو يريد أنهم هبة سيف لدولة خذلوا حتى صار الرجل منهم
كالمرأة

وقول أبى العلاء المعرى

سليل النار دق ورق حتى كأن أباه أوره السلالا

(١) الأبيض : المراد به السيف ، غلظ على وزن منير القاطع ، الأضغان : جمع ضغن - بكسر الضاد
وسكون الغين - وهو الحقد .

فكنى بقوله : " سليل النار " عن السيف ، لأن للنار شأنًا كبيرًا في صنعه فكانها ولدته ، وأنتجته .

وقول أبي نواس في الخمر :
ولما شربناها ودب دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

فقد كنى : بـ " موطن الأسرار " عن القلب

وقول آخر يرثي رجلاً مات بعلّة في قلبه :
ودبت له في موطن الحلم علة لها كالصلال الرقش شر دبيب^(١)
فقد كنى بـ : " موطن الحلم " على القلب

وقول آخر :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى مشغوفة بمواطن الكتمان

فقد كنى: بـ " مواطن الكتمان " عن القلوب لأنها مواضع الأسرار الخفية .

والبعيدة : هي أن يتكلف التكلم اختصاصها بأن يضم إلى لازم لازماً وآخر حتى يلفق مجموعاً وصفيًا مانعاً من دخول كل ماعداً مقصوده .

كأن يقول في الكناية عن الإنسان : " هو حي مستوى القامة ، عريض الأظفار " فهذه المعاني : " حي مستوى القامة ، عريض الأظفار " مجتمعة تعتبر مختصة بالإنسان ، لا توجد فيما عداه فينتقل منها إليه .

وشرط البلاغين في هاتين الكناتين الاختصاص بالمكنى عنه ، وذلك بكون المعنى المكنى به مختصاً بالمكنى عنه ليحصل الانتقال إلى المعنى المقصود .

(١) الصلال . جمع صل - بكسر الصاد - وهي الحية التي يسرى سمها في اللديغ بحيث لا ينفع فيه المصل ، ومعنى الرقش أن فيها نقط سواد وبياض ، وهي من أشد الحيات إبذاء .

٣- القسم الثالث : الكناية التي يطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف:

وهي التي يسمونها " كناية النسبة " ويراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه ومن شواهدنا قول زياد الأعجم:

إن السماحة والبروة والندى في قبه ضربت على ابن الحشرج

فإنه أراد أن يثبت اختصاص ابن الحشرج بهذه الصفات أي ثبوتها له، وأراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات له، فجعلها في قبة، وجعلها مضروبة عليه، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية.

وقول الشنفرى الأزدي في وصف امرأة بالعفة:

بيبت بمنجاة من اللوم بيثها إذا ما بيوت باللامة حلت

فإنه لما أراد أن يبين عفافها، وبراءة ساحتها عن التهمة، وكمال بختها عن أن تلام بنوع من الفجور على سبيل الكناية نسبها إلى بيت يحيط بها تخصيصا للنجاة عن اللوم بها.

وقول المتنبي في مدح كافور:

إن في ثوبك الذي المجد فيه لضياء يبرى بكل ضياء

حيث أراد أن يثبت المجد لكافور، فترك التصريح بهذا، وأثبت له تعلق به وهو الثوب بطريق الكناية .

وقول الكميت الأسدي بمدح أبان بن الوليد البجلي:

بصر أبان قمرين السماح والمكرمات معا حيث صارا

وقول أبي نواس بمدح الخصيب أمير مصر:

فما جازره جود ولا حل دونه ولكن بصر الجود حيث يصير

ففي البيت كنايةان أريد بهما اختصاص المدوح بالجود وقصره عليه، إحداهما في

قوله: "فما جازه جود ولا حل دونه" والثانية في قوله: "ولكن يصير الجود حيث يصير"
وقد تلطف أبو نواس في إثباتها أحسن تلطف، وصاغها أدق صياغة، حيث نكر الجود في
الشطر الأول، فعنى جميع أفراد الجود، لأن النكرة في سياق النفي تعم، ثم نفى أن يجوز
ويتعدى ممدوحه، ويحل دونه، فيكون متوزعا يقوم منه شئ بهذا، وشئ بذاك وحيث
لا يوجد شئ من الجود عند غير الممدوح، فقد ثبت له الجود كله، واختص به، ثم تراه
يعرف الجود في الشطر الثاني باللام المفيدة للعموم، ثم يحله في ذات المكان الذي يحل فيه
الممدوح، وبذلك يفيد اختصاصه به على أبلغ وجه وأكده .

أقسام الكناية عند ابن الأثير

لقد نحا ابن الأثير في تقسيم الأسلوب الكنائي نحواً آخر إذ بنى تقسيمه على الوسائط التي توصل إلى المطلوب من القرب ، والبعد ، والقلّة ، والكثرة وجعلها على ضربين^(١) :

الضرب الأول : ما يحسن استعماله:

والضرب الآخر : ما يقبح استعماله، وهو عيب في صناعة التأليف.

فأما الضرب الأول- الذي يحسن استعماله- فإنه ينقسم إلى أربعة أقسام:

١- التمثيل:

وهو التشبيه على سبيل الكناية ، وذلك أن تراد الإشارة إلى معنى، فتوضع ألفاظ تدل على معنى آخر، وتكون تلك الألفاظ، وذلك المعنى مثالا للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه، كقولنا: "فلان نقي الثوب" أى منزّه عن العيوب.

وللكلام به فائدة لا تكون لو قصدت المعنى بلفظه الخاص، وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصور للمدلول عليه، لأنه إذا صور نفسه مثال ما حوَّط به كان أسرع إلى الرغبة فيه ، أو الرغبة عنه. فمن بدع التمثيل قوله تعالى: ﴿يُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾^(٢) فأما تمثيله الاعتياب بأكل إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم الأخ، ولم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتاً، ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالحية- وهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة المعنى الذي وردت لأجله، فشديد المناسبة جداً، وذلك لأن الاعتياب إنما هو ذكر مثالب

(١) انظر : الجامع الكبير لأبن الأثير - مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد سنة ١٩٥٦م - (ص ١٥٧).

(٢) المحررات : ١٢ .

الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يقاتله، لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة، وأما قوله: "لحم أخيه" فلما في الاغتيال من الكراهة، لأن العقل والشرع معا قد أجمعا على استكراهه، وأما بتركه والبعد عنه، ولما كان كذلك جعل بمنزلة لحم الأخ في كراهته، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله، إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه فهذا القول مبالغ في استكراه الغيبة لأمد فوقها، وأما قوله: "ميتا" فلاجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس. وأما جعله ماهو في الغاية من الكراهة موصولا بالغيبة، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها، مع العلم بأنها من أذى الخلال، ومكره الأفعال عند الله تعالى والناس، فتمزيق العرض مثل أكل الإنسان لحم من يقاتله، لأن ذلك تمزيق على الحقيقة وجعل بمنزلة لحم الأخ لأجل المبالغة في الكراهة والميت لا تمتنع الإحساس به، واتصال ماهو مستكره بالغيبة، لما في طبع الأنفس من الشهوة : للغيبة والميل إليها . ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^(١) فمثل البخل بأحسن تمثيل، لأن البخل لا يمد يده بالعطية كالمغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده. وإنما قال: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك" ولم يقل: "ولا تجعل يدك مغلولة" من غير العنق، لأنه قال: "ولا تبسطها كل البسط" فتاب ذكر العنق، عن قوله: "كل الغل"، لأن غل اليد إلى العنق هو أقصى الغايات التي جرت العادة بقل اليد إليها.

ومن أمثال العرب "إياك وعقيلة الملح" وذلك تمثيل للمرأة الحسناء في منبت السوء، لأن عقيلة الملح هي اللؤلؤة، تكون في البحر، ومن التمثيل قول ابن الدميني:
 أبيض أفى بمنى يديك جعلتني فأفرح أم صيرتني فمى شمالك؟

فذكر اليمين، وجعلها مثالا لإكرام المنزل، وذكر الشمال، وجعلها مثالا لهوان المنزل، لأن اليمين أشرف منزلة من الشمال، وأكرم محلا.

وفي القرآن العزيز ما يدل على ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ

(١) الإسراء : ٢٩ .

مأصحاب اليمين في سدر مخضود..... ﴿١﴾ الآية، فلما جاء إلى ذكر الشمال قال تعالى: ﴿وأصحاب الشمال مأصحاب الشمال....﴾ الآية (٢) .

٢- الإرداف:

وهو اسم سماه به قدامة بن جعفر الكاتب (٣) ، قال ابن الأثير: وأكثر علماء هذه الصناعة قد أدخلوا الإرداف في " التمثيل " وفي الفرق بينهما إشكال ودقة (٤) ، فأما " التمثيل " فقد سبق أن تراد الإشارة إلى معنى فتوضع الألفاظ الدالة على معنى آخر تكون تلك الألفاظ، وذلك المعنى مثالا للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه، والعبارة عنه، كقولنا: " فلان نقي الثوب " أى منزعه عن العيوب.

وأما " الإرداف " فهو أن تراد الإشارة إلى معنى، فيترك اللفظ الدال عليه، ويؤتى بما هو دليل عليه، ومرادف، كقولنا: " فلان طويل النجاد " والمراد به طويل القامة، إلا أنه لم يتلفظ بطول القامة الذي هو الغرض، ولكن ذكر ما هو دليل على طول القامة، وليس نقاء الثوب دليلا على النجاسة عن العيوب، وإنما هو تمثيل له.

والإرداف ينفرع إلى خمسة فروع (٥) :

١ - فعل المبادعة : كقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه﴾ (٦) فإن المراد بقوله تعالى: ﴿لما جاءه﴾ أى أنه سفيه الرأي، يعنى: أنه لم يتوقف في تكذيبه وقت مسمعه، ولم يفعل ما يفعل المراجع (٧) العقول

(١) الواقعة : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) الواقعة : ٤١ .

(٣) نقد الشعر ص ٨٨.

(٤) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص ١٦٠.

(٥) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص ١٦٠-١٦٥.

(٦) العنكبوت : ٦٨ .

(٧) المراجع : جمع المراجع أى الكثير الاعتزاز، ولعله أسنده من " نقل مراجع " أى موقرة بكثرة التمر.

المتشبهون في الأشياء، فإن من شأنهم إذا ورد عليهم أمر، أو سمعوا خبراً أن يستعملوا فيه الروية والفكر، ويتأنوا في تدبيره، إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أى أنه ضعيف العقل، عازب الرأي، فعدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه، وأردف له، وهو قوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ وذلك أكد وأبلغ. ومن هذا الباب أيضاً وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين^(١) والكلام على ذلك كالكلام على الذى قبله.

٢- باب "مثل" وذلك دقيق الصفة لطيف المغزى، وقد كانت العرب تأتي "مثل" في هذا الموضع توكيدا للكلام، وتثبيتاً لأمره، يقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح: "مثلى لا يفعل هذا": أى أنا لأفعله، فنفى ذلك عن مثله، وهو يريد نفى نفسه، قصداً للمبالغة، فسلك به طريق الكناية، لأنه إذا نفاه عمن يمثله، أو يشابهه، فقد نفاه عنه لا محالة.

وكذلك قولهم أيضاً: "مثلك إذا سئل أعطى" أى أنت كذلك، وهو كثير في الشعر القديم والمولد، والكلام المنتور، وسبب توكيد هذه المواضع "مثل" أنه يراد أن يجعل من جماعة هذه أوصافهم، تثبيتاً للأمر، وتمكيناً له ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه، ولم ترس فيه قدمه.

ومثل ذلك قولهم في مدح الإنسان: "أنت من القوم الكرام" أى لك في هذا الفعل سابقة، وأنت حقيق به، ولست دخيلاً فيه.

وقد ورد هذا الباب في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢) وهذا كقولهم: "مثلك لا يخجل" فنفى الخجل عن مثله، وهم يريدون نفى عن ذاته، قصداً للمبالغة؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده، وهو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه. ونظير ذلك قولك للعربي: "العرب لا تخفى الذم"؛ وهذا أبلغ من

(١) سبأ : ٤٣ .

(٢) الشورى : ١١ .

قولك: " أنت لا تخفر الذمم"

وليس فرق بين قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ وبين قوله: " ليس كما لله شيء" إلا من الجهة التي نبهنا عليها.

٣- ما يأتي في جواب الشرط، وذلك من ألطف الكنايات وأحسنها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾^(١) كأنه قال: إن كنتم منكبين يوم البعث فهذا يوم البعث، فكفى بقوله: " فهذا يوم البعث" عن بطلان قولهم وكذبهم فيما ادعوه، وذلك رادف له، ونظيره قولك: " تنكر حضور زيد فيها هو" أي فأنت كاذب، وهذا من دقائق الكناية.

٤- الاستثناء من غير موجب، وذلك من غرائب الكناية، كقوله تعالى: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾^(٢) والضريع نبت ذو شوك تسميه قريش " الشوق" في حالة حضرته وطراوته، فإذا يبس سمته العسب " الضريع"، والإبل ترعاه طريا، ولا تقر به يابسا، والمعنى ليس لهم طعام أصلا، لأن الضريع ليس بطعام البهائم، فضلا عن الإنسان، وهذا مثل قولك " ليس لفلان ظل إلا الشمس" تريد نفى الظل عنه، وذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام وعلى نحو من هذا جاء قول بعضهم:

وتفردوا بالمكرمات فلم يكن لسواهم منها سوى الحرمان

والمراد نفى المكرمات عن سواهم، لأنه إذا كان الحرمان من المكرمات فما لهم منها شيء البتة:

٥- ليس بشيء مما تقدم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾^(٣) والمعنى المراد من هذا الكلام: إنك أعطأت، وبسما قلت، وقوله " لم أذنت لهم"

(١) الروم : ٥٦ .

(٢) الغاشية : ٦ .

(٣) التوبة : ٤٣ .

بيان لما كنى عنه بالعفو، أى مالك أذنت لهم، وهلا استأنيت؟ فذكر العفو دليل على الذنب، ورادف له، وإن لم يكن يذكره، وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١) قيل لهم إذا استبستم العجز عن المعارضة فاتركوا العناد، فوضع قوله: "فاتقوا النار" موضعه، لأن اتقاء النار لصيقه، وضميمه من حيث إنه من نتائج وروافده، لأن من اتقى النار ترك المعاندة، ونظيره أن يقول الملك لخصمه: "إذا أردت الكرامة عندي فاحذروا سخطي، يريد فأطيعوني، واتبعوا أمري، وافعلوا ماينتج حذر السخط، وذلك رادف له، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ألا ترى إلى لطافة هذه الكناية؟ فإنها أفادت تكذيب دعواهم، ودفع ماانتحلوه. وفائدتها هنا أنه روى في تكذيبهم أدب حسن، حيث لم يصرح بلفظه، فلم يقل: كذبتهم، لأن فيه نوع استقياح في الخطاب، ووضع قوله تعالى: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ الذى هو نفي مادعوا بيانه موضعه، لأن ذلك رادف له. وما يجرى هذا المجرى قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَالَحْنَا مَرْسِلَ مِنْ رَبِّهِ، قَالُوا: "إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الغرض بقولهم: "إنا بما أرسل به مؤمنون" جوابا عن سؤالهم "أتعلمون أن صالحنَا مَرْسِلَ مِنْ رَبِّهِ؟" إثبات العلم بإرساله، وأنه من الأمور الظاهرة المسلمة، التي لايدخلها ريب، ولايعترضها شك، لكن عدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه، ورادف له، وهو الإيمان به، أعنى بصالح. وإنما صرح منهم بعد ثبوت نبوته عندهم، والعلم بإرساله إليهم، فالإيمان به إذن دليل على العلم بأنه نبي مرسل، وهذا من دقائق الإرداف. ولطائفه.

وأمثال ذلك كثيرة كقول الأعراب في حديث أم زرع في وصف زوجها: "له إبل قليلات. المسارح، كثيرات المبارك، إذا سمعن صوت المزهري أيقن أنهن هوالنك" فإن الظاهر من هذا القول أن إبله تنزل بفنائمه ولا تخرج ليقرب عليه نحرها للأضياف فإذا ضرب الزهر للقيان نحرها لضيفه. لقد اعتادت هذه الحالة، وألفتها، وغرض الأعرابية من هذا الكلام

(١) البقرة : ٢٤ .

أن تصف زوجها بالجلود والكريم، ولكنها لم تذكر ذلك بلفظه الدال عليه، وإنما أنت
بمعان ، هي أدلة على ذلك من غير تصريح بمرادها ، وكذلك قال بعضهم :
وددت - وماتغنى الودادة-أنتي بما فى ضمير الحاجبية عما لم
فسلح كان حبرا سرنى وعلمته وإن كان شرا لم تلمنى اللوائم

فإن المراد من قوله: " لم تلمنى اللوائم " أنى أهجرها. فأضرب عن ذلك جانباً، ولم
يذكر اللفظ المختص به، ولكنه ذكر ما هو دليل عليه ، ورادف له.

٣- المجاورة :

وذلك أن يريد المؤلف ذكر شيء، فيتروك ذكره جانباً إلى مجاوره، فيقتصر عليه،
اكتفاء بدلالته على المعنى المقصود، كقول عنزة:
وشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا محرم

أراد بالثياب هنا نفسه، لأنه وصف المشكوك بالكريم ولا توصف الثياب به فثبت
حيث أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب، وفى ذلك من الحسن ما لا ينكره العارف بهذه
الصناعة، وقال عنزة أيضاً:
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر غى الشمال مقدم^(١)

الصفراء هنا الخمر، والذكر للزجاجة حيث هي مجاورة لها، ومشملة عليها،
وذهب بعض المفسرين فى قوله تعالى: " وثيابك فطهر " إلى أنه أراد بالثياب القلب أو
الجسد، أى قلبك فطهر أو جسديك، وأمثال هذا كثيرة.

٤- الكناية التى ليست تمثيلاً ولا إردافاً ولا مجاورة:

(١) ذات أسرة: أى ذات طرائق وخطوط. وقوله بأزهر يعنى إبريقاً من فضة أو رصاص ومقدم مسدود
فمه بخرقة، وقيل مقدم عليه التقدم يصلى به .

كقوله تعالى : ﴿أَوْ مِنْ يَتَشَأْ فِي الْخَلِيَةِ . وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾^(١) فكفى
عن النساء بأنهن يخرين في الخلية أى الزينة والنعمة، وهو^(٢) إذا احتاج إلى معاورة
الخصوم كان غير مبين ، أى ليس عنده بيان، ولا يأتى ببرهان يحتاج به من يخاصمه. وذلك
لضعف عقول النساء ، ونقصانهن عن فطرة الرجال ، ومن هذا الباب قول أبى نواس :
تقول التى من بيتها خف محملى عزيز علينا أن نراك تسير

ألا ترى إلى حسن هذه الكناية عن ذكر امرأته بقوله : " التى من بيتها خف محملى "
فإنه من ألطفها مذهباً؟ وكذلك قول نصيب:
فعاوجوا فأتونا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أمنت عليك الحقائق

(١) الزحرف : ١٨ .

(٢) الضمير "هو" عائد إلى "من" فى قوله تعالى "أَوْ يَتَشَأْ فِي الْخَلِيَةِ" باعتبار لفظها .

الفصل الرابع

الأثر البلاغي للأسلوب الكنائى

الكناية واد من أودية البلاغة ، ومقتل من مقاتل البيان العربى ، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه ، وصفت قريحته ، وطريق جميل من طرق التعبير الفنى ، يلجأ إليه الأدباء للتعبير عما يدور فى نفوسهم من المعانى ، ويميش فى صدورهم من الخواطر ، ووسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع ولها أثر كبير فى تحسين الأسلوب ، وتزيين الفكرة ، فهى فى العبارة الأدبية كالدرة اليتيمة فى العقد ، وكالحال فى حد الحساء ، وكالزهرة الجميلة فى الروضة الفيحاء ، تضى عليها جمالا أحاذاً ، وسحراً حلالاً ، وتكسوها رونقاً وبهاءً فتسترعى الانتباه ، وتسترق الأسماع ، وتبهى الأبواب ، وتذوب النفس تأثراً بجمالها وتراقص العواطف تهيئاً لعناقها ، وتحرك الأحاسيس مفتونة بحسنها وبهائنها .

وقد بحث البلاغيون قديماً وحديثاً عن سر جمال الكناية وحسنها وعظمتها ، وقد توصلوا فى النهاية إلى الكشف عن هذا السر ، وأجملوه فيما يلى :-

١ - الكناية تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفى طيها برهانها . كقول البحرى :

يغضون فضل الحفظ من حيث ما بدا لهم عن مهيب فى الصدور محب

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح ، وهيبهم إياه بغض الأبصار الذى هو فى الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال ، وتظهر هذه الخاصة جلية فى الكنايات عن الصفة والنسبة .

٢ - الكناية تضع لك المعانى فى صور المحسات ، ولاشك أن هذه خاصة الفنون ؛ فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك ؛ وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً ، وذلك لأن المعانى الكلية مستنتجة من الجزئيات المحسوسة ، وبجردة عنها ، وهذه المعانى المجردة لا يدركها العقل واضحة إلا إذا صور

لنفسه محسوسات جزئية ، تكفى عنده لانتزاع صورة مجردة عنها ، وإلا فلا يتصور من اللفظة الموضوع لها إلا صورة إجمالية خفيفة جداً ، ثم هو لا يتأثر عند سماعها إلا بمساعدة انفعال يصاحب صورتها الجملة ، ويقترن بها أحياناً ، فالكرم والجلود والندى الموجودة في أمثلة الأسلوب الكثنائي معان متقاربة ، وجميعها مجردة عن جزئيات محسوسة ، لا تتضح تلك المعاني لدى الذهن إلا إذا صور تلك الجزئيات المنتزعة فيها .

فقولنا : " محمد كريم " تعبير لا يتصور معه السامع صورة الكرم واضحة في محمد إلا إذا صورته يعطى محتاجاً أو سائلاً ، أو تصوره يقرى ضيفاً ، ونتخيل أن السامع تصور ذلك ، فإنه لا يتصور مقدار الكرم من مجرد تصور إعطاء أو تصور قرى ، لأن صفة الكرم متفاوتة شدة وضعفاً ولا يمكن معرفة شدتها ، أو ضعفها إلا إذا عرف مقدار العطاء ، والتوسع في القرى ، ثم الهيئة والحالة التي يكون عليها محمد من ارتياح ومسارة ، أو قطوب ، وتباطؤ ، وبذلك وضح أن السامع لا يقف أو لا يدرك صورة الكرم من الجملة السابقة إلا أن يمثل لنفسه محمداً في عطاء ، ولا يدرك تلك الصفة وشدتها إلا إذا تصور كثرة العطاء من جهة ارتياح محمد ومسارعة إلى العطاء من جهة أخرى .

وهذه الأشياء لا يمكن أن يمثلها السامع لنفسه من الجملة السابقة إلا بتعب وإطالة وقوف أمامها وإمعانه فيها ، بخلاف ما إذا سمع قول الشاعر:

عمرو العلاء ذو الندى لا يسابقه	مر السحاب ولا ربح تبحاره
أجفانه كالجواوي للوفسود إذا	لبوا بمسكة ناداهم مناديه
أو أحملوا نحضوا منها وقد ملئت	قوتاً لحاضره منهم وباديه

فإن الشاعر لم يقتصر على وصف عمرو بالندى ، ولو كان منه ذلك ، ما كان لكلامه حلاوة ولا بلاغة ، ولكنه زاد على وصفه مسارعة إلى الندى ، وصور أجفانه التي يوضع فيها الطعام أنها كثيرة ، وكبيرة كالجواوي ، بل زاد على ذلك أنه أقام منادين ينادون من حضر مكة إليها ، ثم لم يقف عند ذلك بل صور أن الممدوح مداوم على هذا حتى في أيام المحل وقلة الطعام للحاضر والبادى على كثرتهم ، فتصور العقل من جميع هذه الجزئيات صورة الكرم ، وشدتها في الموصوف على أتم وضوح ، فحصل عنده

بذلك المسرة والاستحسان ، وقام في نفسه من الإعجاب بعمرو والإجلال له مايناسب وضوح الصورة التي تجلت عليه من مجموع العبارات في الأبيات .

فالكناية في أغلب صورها هذا شأنها ، فإنها تمثل للذهن المعنى المجرد بصورة جزئياته المحسوسة ، فيدرك من ثم المعنى المقصود على أحصر طريق من غير استكراه ولا عسر فقول الشاعر :

أرغ وأزهد يا زبد فما وعيدك لي بضائر

فإنه كنى عن شدة الغضب بجزئيات محسوسة يستدل بها عليه .

وقول الآخر :

نصبوا بقارعة الطريق نيامهم يتسابقون إلى قرى الضيفان
ويكاد موقدهم يجود بنفسه حب القرى حطبا على النيران

فإن هذه المحسوسات الجزئية يكتى بها عن شدة الكرم في المدوحين وارتياحهم

إليه وقول الآخر :

خطرات النسيم تخرج نعليه وليس الحرير يدمى بنائه

فإنه بالغ في ذكر هذه المحسوسات كناية عن رقة جلده وبضاخته ، كما أنه يفهم بطريق الفحوى أنه مصان متحجب ، وأنه من أهل الزف والتعيم الذين يلبسون الحرير وما إليه في الرقة ولين الملمس .

٣- الكناية ممكنك من أن تشفى غلتك من خصمك من غير أن تجعل له سبيلا عليك ودون أن تغدش وجه الأدب أو تخرج عن حدود اللياقة والذوق ، وهذا النوع يسمى بالتعريض . ومثاله قول المتنبي في قصيدة يمدح بها كافورا ويعرض بسيف الدولة .

رحلت فكم بأك بأحفان شادن على وكستم بأك بأحفان ضيفم^(١)

(١) الشادن : ولد الغزال - والضيفم . الأسد ، أراد بالياكى بأحفان الشادن المرأة الحسناء . -

وماربة القرط المليح مكانه بأجزع من رب الحسام المصمم^(١)
فلو كان مابى من حبيب مقنع عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رضى ومن دون ماتقى هوى كاسر كفى وقوسى وأسهمى
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونى وصدق ما يعتاده من توهم

فإنه كنى عن سيف الدولة ، أولا : بالخبيب المعمم ، ثم وصفه بالغدر الذى يدعى أنه من شيعه النساء ، ثم لامه على مبادته بالعدوان ، ثم رماه بالجن ، لأنه يرمى ، ويتقى الرمي بالاستتار خلف غيره ، على أن المتنبي لا يجازيه على الشر بمثله ، لأنه لا يزال يحمل له بين جوائحه هوى قديما ، يكسر كفه وقوسه وأسهمه ، إذا حاول التضال ، ثم وصفه بأنه ساء الظن بأصدقائه لأنه ساء الفعل كثير الأوهام والظنون ، حتى ليظن أن الناس جميعا مثله فى سوء الفعل ، وضعف الوفاء ، فانظر كيف نال المتنبي من سيف الدولة هذا النيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفا .

٤- إن حسن الكتابة أو الإرداف يأتى من طريق المبالغة فى الوصف ، لأن فى التعبير بهذا الردف أو التابع من القوة والحسن مالىس فى اللفظ الموضوع لذلك المعنى . ومن ذلك قول عمر بن أبى ربيعة فى وصف امرأة بطول الجيد :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أيوها وإما عبد شمس وهاشم

فلم يذكر طول الجيد بلفظه الخاص به ؛ ولكنه عدل عنه ، وكان فى ذلك من المبالغة والجمال مالىس فى اللفظ الأصلى ، لأن بعد مهوى القرط أدل على طول أكثر ، لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلة الجيد وليست كل طويلة الجيد بعيدة مهوى القرط ، إذا كان طول الجيد فى عنقها يسيرا .

وبالباكى بأكفان ضيغم الرجل الشجاع . يقول كم من نساء ورجال بكوا على فراقى . وجرعوا لارتحالى .

(١) القرط . ما يعلق فى شحم الأذن . والحسام ، السيف القاطع . والمصمم الذى يصيب المفاصل ويقطعها ، يقول : لم تكن المرأة الحسنة بأجزع على فراقى من الرجل الشجاع .

ولما أراد امرؤ القيس أن يصف ترف محبوبته ، وأن لها من يكفيها قال :
ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤم الضحى ، لم تنتطق عن تفضل

فقال " نؤم الضحى " وأن فتيت المسك يبقى فوق فراشها إلى الضحى ؛ وكذلك
سائر البيت ؛ أى هى لا تنتطق لتخدم ؛ ولكنها فى بيتها متفضلة ؛
ومنه قول ليلى الأحيلىة :

ومحرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما

أرادت وصفه بالجلود والكرم ، فجاءت بالأردف والتوايع لهما ، أما ما يتبع الجود
فنتعته بأنه محرق القميص ، لأن العفاة تجذبه فتحرق قميصه من مواصلة جذبهم إياه ، وأما
ما يتبع الكرم فالحياء الشديد الذى كأنه من إماتة نفس هذا الموصوف ، وإزالة الأثر عنه ،
حتى يخال سقيما ، ومنه قول الحكم الحضرى :

قد كان يحجب بعضهن براعتى حتى سمعن تنحنحن وسعالى

فلم يصف الكبر باللفظ بعينه ، ولكنه أتى بتوايعه ، وهى السعال والتحنح

٥ - بالكناية استطاع التعبير عن المعانى غير المستحسنة بالفاظ لا تعافها الأذواق ولا
تمجها الأذان ، وأمثلة هذا كثيرة فى القرآن الكريم الذى لا يحوى إلا العبارة
المهذبة ، والكلام العذب السائق ، قال ابن فارس : يكنى عن الشيء : فيذكر بغير
اسمه تحسينا للفظ ، أو إكراما للمذكور ، وذلك كقوله جل ثناؤه : " وقالوا لجلودهم
لم شهدتم علينا " (١) وقالوا إن الجلود فى هذا الموضع كناية عن آراب الإنسان ؛
وكذلك ، قوله جل ثناؤه : " ولكن لا تواعدوهن سرا " (٢) إنه النكاح ، وكذلك
" أوجاء أحد منكم من الغائط " (٣) ما طمان من الأرض . كل هذا تحسين للفظ ،
والله جل ثناؤه كريم يكنى ، كما قال فى قصة عيسى وأمه عليهما السلام : " ما

(١) فصلت : ٢١ .

(٢) البقرة : ٢٣٥ .

(٣) النساء : ٤٣ .

المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام" (١) كناية عما لا يد لأكمل الطعام منه (٢) .

وحسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح ، أصل من أصول الفصاحة وشروط البلاغة ، ومن ذلك ما كتب أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوبة عن المعتضد بالله إلى حمارويه ، وقد أوصى حمارويه بابتته التي تزوجها المعتضد بالله ، فكان مما كتب ابن ثوبة : " أما الوديعة فهي بمنزلة ما انتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها ، وحياطة لها " واستحسن الكناية عن الزوجة بالوديعة حتى صار الكتاب يعتمدونها ، وقال بعضهم : إن تسمية إياها بالوديعة تصف البلاغة .

٦- إن الأسلوب الكنائى ينزع إلى اللغة الطبيعية ، بتمثيل الأشياء بخصائصها ومن ذلك قول أبي نولس :

ولما شربناها ودب ديبها إلى موطن الأسرار قلت لها قصى

فإلى أين دب ديب راح أبي نولس ؟ إلى موطن الأسرار ، وما موطن الأسرار ؟ ليس الدماغ ؟ فقد نعى الشاعر إلى إطلاق لفظ ، وإرادة لازم معناه ، وقد دل على ذلك على الشيء بأوصافه ، ، وفي هذه الدلالة نزوع إلى اللغة الطبيعية التي تمثل الأشياء بتمثيل خصائصها ، ومثله قول وديع البستال فى تعريب محاسن الطبيعة : " ولا تبعدوا عن جانبيات الشهد المتطايير هنا وهناك تقبل ثغور الأزهار " حيث كنى بجانبيات الشهد عن النحل .

وقول الشاعر :

فارتشف بريق العناقيد بيد ما تقاسى من تباريح الكمد

حيث كنى بريق العناقيد عن الخمرة ، وفى ذلك نزوع إلى اللغة الطبيعية

(١) المائدة : ٧٥ .

(٢) كتاب الصاحبى لأحمد بن فارس ص ٢١٩ .

٧- إن الكتابة قد تكون طريقا من طرق الإيجاز والاختصار كقوله تعالى كتابة عن كثير من الأفعال "ليس ما كانوا يعملون"^(١) وقولهم كتابة عن الجامع لكل شيء : " هو سفينة نوح "

٨- إنك ل ترى فى الكتابة من العجب العجائب ، ومن غريب الصنعة ، ومن بديع السحر إذا كانت فى باب الصناعات الخمسة الحقة بذكر منافعها كما قيل لحائك :

" ما صناعتك ؟ " قال " زينة الأحياء ، وجهاز الموتى " وقال ابن باقلاوى - بائع فول "

أنا ابن الذى لا ينزل الدهر قدره وإن نزلت يوما فسوف تعود

ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره فممنهم قيسام حوله وقعود

(١) المائدة : ٦٢ .

الفصل الخامس

الكناية في القرآن الكريم

قبل أن أتحدث عن الكناية في القرآن الكريم ينبغي أن أشير في إيجاز إلى آراء علماء البيان في الكناية في كونها من قبيل الحقيقة أو المجاز ؛ إذ إن بعضهم ممن ينكرون وقوع المجاز في القرآن ينكرون وجودها بناء على أنها من المجاز فأقول مستعينا بالله وحده طالبا منه العون والتوفيق .

لقد اختلف علماء البيان في الكناية ، فمنهم من قال : إنها من باب الحقيقة ، ومنهم من قال : إنها من باب المجاز ، ومنهم من قال : إنها لفظة يتجاوزها جانب الحقيقة والمجاز ، ومنهم من لم يحكم فيها بحقيقة ولا مجاز .

فأما من جعلها من باب الحقيقة فهو الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فقد قال في التعريف بها " والمراد^(١) بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يبيء إلى معنى هو تاليه ، وردفه^(٢) في الوجود فيسمى به إليه ، ويجعله دليلا عليه . مثال ذلك قولهم : " هو طويل النجاد " ^(٣) يريدون طول القامة ، و " كثير رماد القدر " يعنون : كثير القرى ، وفي المرأة : " نؤم الضحى " والمراد أنها مزفة مخدومة ، لما من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا في هذا كله - كما ترى - معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود ، وأن يكون إذا كان ، ألا ترى أن القامة إذا طالت : طال النجاد ؟

وإذا أكثر القرى : كثير رماد القدر ؟ وإذا كانت المرأة مزفة لما من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى ؟

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٢ .

(٢) الردف - بكسر الراء وسكون الدال - هو الذي يركب خلف الراكب ، وكل شيء تبع شيئا فهو ردفه .

(٣) النجاد ككتاب : ما وقع على العاتق من هائل السيف .

وإيضاح ذلك أن لكل تركيب من التراكيب التى ساقها عبد القاهر معنيين : أحدهما متبوع وهو المعنى الكنائى المراد كطول القامة - مثلاً - والمتبوع هو المقصود بالإفادة ، ولم يذكر لفظه ، والتابع - وإن ذكر لفظه - لم يقصد لذاته ، بل ليكون وسيلة ورمزاً إلى متبوعه ، فالمعنى الكنائى عند عبد القاهر هو المتبوع أو الملزوم ، والمعنى الحقيقى : هو التابع أو اللازم ، ومن هنا كانت الكناية عند عبد القاهر حقيقة إذ إن الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له سواء أكان ما وضع له مقصوداً لذاته أم مقصوداً لينتقل منه إلى غيره ، والكناية من النوع الثانى أى أنه لفظ مستعمل فيما وضع له لينتقل منه إلى غير الموضوع له ، بحيث يكون غير الموضوع له هو: متعلق الإثبات والنفى ، ومرجع الصدق والكذب ، وعلى هذا تفارق المجاز من أوسع الأبواب لأنها حقيقة وكفى.

ورأى عبد القاهر هذا رأى حسن ووجيه لمطابقته للواقع إذ الواقع أن المعنى الحقيقى لازم وتابع فى الوجود للمعنى الكنائى ، لأن القامة إذا طالت : طال النجاد ، وإذا كثر القرى : كثر رماذ القدر ، وإذا كانت المرأة مترفة ، لها من يكفيها أمرها : ردف ذلك أن تنام إلى الضحى وهكذا .

وقد تبع عبد القاهر فى هذا الاتجاه كثير من علماء البيان منهم الفخر الرازى ، وأبو يعقوب السكاكى ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والنويرى .

وأما من جعلها من باب المجاز فهو أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوى فقد قال فى كتابه " الطراز " كاشفاً النقاب عن منزلتها فى البيان العربى : " اعلم أن الكناية واد من أودية البلاغة وركن من أركان المجاز " وقد تبعه فى هذا الاتجاه كثير من علماء البيان ، واحتجوا بأن تكون الكناية تعبيراً عن معنى لا يذكر بلفظه الموضوع له ، بل بلفظ يدل عليه ، فيعبر به عن ذلك المعنى ، وقالوا: إن المجاز بالكناية ليس من جهة الأفراد ، بل من جهة التركيب كقوله : " فلان نهارة صائم وليله قائم " ، فإن الصيام والقيام حقيقتان ، والليل والنهار حقيقتان ، وإنما نسبة الصوم إلى النهار والقيام إلى الليل هو المجاز^(١) .

(١) جواهر الكنز : لنجم الدين بن الأثير الحلبي المتوفى سنة ٧٣٧ هـ تحقيق الدكتور محمد زغللول سلام ص ١٠١ .

وأما من قال : إنها لفظة تجاذبها جانباً حقيقة وبجاز قضياء الدين بن الأثير الجزري^(١) ومن يقول بقوله . واحتجوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ نَسْتَمِمْ الْنِسَاءَ﴾^(٢) وقالوا إن ذلك يجوز حمله على الحقيقة والجاز ، وكل منهما يصح به المعنى ولهذا ذهب الشافعي - رحمه الله - إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد للجسد ، وذهب غيره إلى أن المراد باللمس الجماع ، فقد تجاذب هذه اللفظة جانباً حقيقة وبجاز ، وكذلك قوله تعالى : ﴿إِنْ هَذَا أَخَى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِى نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(٣) فالنعجة يجوز أن يكتنى بها عن المرأة ، ويجوز استعمالها في حقيقتها وهي الأنتى من النعم^(٤) .

وأما من لم يحكم فيها بحقيقة ولا بجاز فالإمام محمد بن سنان الخفاجي، وأبو هلال العسكري والغامى ، ومن يقول بقولهم ، واحتجوا على ذلك بأن الكناية عبارة عن ذكر المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وهذا لا يجوز أن يكون حداً ولا رسماً ، لأن الحد والرسم لا بد فيهما من اطراد واتمكس في الحد وهذا الحد الذى ذكره لا يطرد ولا ينعكس ، لأنه يقتضى أن كل مالا يكون ذكراً للمعنى القبيح باللفظ الحسن فلا يكون كناية وليس الأمر كذلك ، فإن الكناية تقع على المعنى الحسن والمعنى القبيح كقولك : " فلان طویل النجاد " تعنى بذلك طول قامته ، فهذا اللفظ حسن كنى به عن معنى حسن ، فينتقض عليهم ذلك الحد^(٥) .

وأنا أميل إلى رأى الشيخ عبد القاهر الذى يجعل الكناية من قبيل الحقيقة ، لأنه - كما أشرت قبلاً - مطابق للواقع . ومن هذا رأى أنطلق إلى الحديث عن الكناية فى القرآن الكريم ، فأقول : إن الكناية موجودة فى القرآن الكريم وأنها فيه من قبيل الحقيقة ، وليست من قبيل الجاز .

(١) فى الملل السائر ، ونقله صاحب الطراز ج ١ ص ٣٦٨ .

(٢) النساء : ٤٣ .

(٣) ص : ٢٣ .

(٤) جواهر الكنز ص ١٠٢ .

(٥) جواهر الكنز ص ١٠٣ .

ولقد حفل القرآن الكريم بضروب شتى منها ، ففيه الإرداف ، ومنه قوله تعالى : ﴿وقضى الأمر﴾^(١) وحقيقة ذلك ، وهلك من قضى الله هلاكه ونجا من قضى نجاته ، وعدل عن الحقيقة للدلالة والتنبيه على ذلك بأمر مطاع لا يرد قضاؤه .

ومنه قوله تعالى : ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾^(٢) أى عفيفات ، قد قصرت عفتهم طرفهن فى يعولتهن ، وعدل عن المعنى الخاص إلى لفظ الإرداف ؛ لأن كل من عفى غض الطرف عن مطموح ، فقد يمتد نظر الإنسان إلى شيء ، وتشتبه نفسه ؛ ويعف عنه مع القدرة عليه ، لأمر أمر ، وقصر طرف المرأة على بعلها أو قصر طرفها حياء وخفرا أمر زائد على العفة ، لأن من لا يطمح طرفها لغير بعلها ؛ أو لا يطمح حياء وخفرا ، فإنها ضرورة تكون عفيفة ، وليست كل عفيفة قاصرة الطرف ، فلذلك عدل عن اللفظ الخاص إلى الإرداف .

وفيه الإشارة كقوله تعالى : ﴿وغيض الماء﴾^(٣) فإن غييض الماء يشير إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ، ومطر السماء ، ولولا ذلك لما غاض الماء ومنها أيضا قوله تعالى : ﴿وفيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين﴾^(٤) ففيه إشارة إلى كل ما تميل إليه النفس من الشهوات التى لا تنحصر ، وتلد الأعين من المرئيات التى لا تنضب ، لنعلم أن هذا اللفظ القليل قد دل على معان لا تنحصر عدا ، ومنها قوله تعالى : ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾^(٥) ، فانظر إلى ما أشارت إليه لفظة " الأمر " من ابتداء نبوة موسى - عليه السلام - وخطاب الحق له ، وإعطائه الآيات البينات من إلقاء العصا لتصير نعبانا ، وإخراج يده بيضاء " وإرساله إلى فرعون ، وسؤاله شد عضده بأخيه هارون إلى جميع ما جرى فى ذلك المقام ... كل ذلك أشارت إليه هذه اللفظة الواحدة .

(١) هود : ٤٤ .

(٢) الرحمن : ٥٦ .

(٣) هود : ٤٤ .

(٤) الزخرف : ٧١ .

(٥) القصص : ٤٤ .

وفيه الرمز والإيماء كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ لِكُلِّ مَسْجِدٍ وَلِكُلِّ مَأْكَلٍ وَلِكُلِّ مَسْكَنٍ وَلِكُلِّ مَسْجِدٍ وَلِكُلِّ مَأْكَلٍ وَلِكُلِّ مَسْكَنٍ﴾ (١) فقد أشارت كلمة "ألف" إلى العدد ، فقد روى بعض العلماء أنهم كانوا أربعة آلاف، وروى من طريق آخر أنهم كانوا ثلاثين ألفاً ، وصحح العلماء الرواية الثانية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ لِكُلِّ مَسْجِدٍ وَلِكُلِّ مَأْكَلٍ وَلِكُلِّ مَسْكَنٍ وَلِكُلِّ مَسْجِدٍ وَلِكُلِّ مَأْكَلٍ وَلِكُلِّ مَسْكَنٍ﴾ فجمعها جمع الكثرة ، ولو كانت الرواية الأولى أصح لقال سبحانه "آلاف" ولم يقل : "ألف" ولا شك أن الذي صور هذا المعنى هو اللفظ الذي رمز به إلى العدد.

وفيه التمثيل كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَوَى عَلَى الْجُودَى﴾ (٢) فإن حقيقة ذلك ، وجلست على هذا المكان ، فعدلت عن الحقيقة إلى التمثيل لما في الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لا يزعج فيه ولا ميل ، ولا حركة معه ولا اضطراب ، فإن هذا الجلوس تسكن معه قلوب أهل السفينة لسكونها ، ولا تسكن إلا بهذا الجلوس المتعوى بالاستواء، وبذلك يحصل تمام الأمن، وكمال الطمأنينة ولا يحصل ذلك من قولنا : جلست ، ولا ما يدل على معناه فقط ، فلذلك عدل عن لفظ الحقيقة إلى التمثيل ، وما كان ذلك إلا لحسن التصوير وجمال التعبير.

وفيه التعريض (٣) كقوله تعالى: ﴿قَالُوا آتَتْ فَعَلَتْ هَذَا بَآهَتَا يَا إِبْرَاهِيمَ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٤) فقول إبراهيم : "فاسألوهم إن كانوا ينطقون" تعريض بجهلهم وضعف عقولهم ، فكأنه يقول لهم : كيف تعبدون من لا يجيب إن سئل ، ولا ينطق إن كلم ، وتجعلونه شريكاً لمن له الخلق والأمر ؟

كذلك توجد في القرآن الكريم شواهد لأقسام الكناية المصطلح عليها عند علماء البيان وهي: الكناية المطلوب بها صفة ، والكناية المطلوب بها موصوف ، والكناية

(١) البقرة : ٢٤٣ .

(٢) هود : ٤٤ .

(٣) ذكرت هذا بناء على أن أكثر علماء البيان يجعلون التعريض نوعاً من أنواع الكناية ، وصورة من صورها .

(٤) الأنبياء : ٦٢ ، ٦٣ .

المطلوب بها نسبة . فمن الكناية عن الصفة قوله تعالى: ﴿إِلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة﴾^(١) حيث كنى بالتحيز عن الميزمة ، وقوله تعالى: ﴿وَتَبَايَكَ فَطَهَّر﴾^(٢) " كناية عن عفة النفس وطهارة الذليل .

ومن الكناية عن الموصوف قوله تعالى: ﴿وَجَلَسْنَا عَلَى ذَاتِ أَلْوَابٍ وَدَسَر﴾^(٣) فقد كنى بألواح ودسر عن السفينة لأن مجموع الأمرين مجتمعين وصف مختص بالسفينة ، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾^(٤) كناية عن حرائر النساء ، فإن العرب كانت من عادتها الكناية عن حرائر النساء بالبيض ، قال امرؤ القيس :

وبيضه حذر لا يرام حياؤها
تمتعت من لمو بها غير معجل

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي اخْتِصَامٍ غَيْرِ مَبِينٍ﴾^(٥) فإنه سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الرّف والتزين والنشأغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني .

ومن الكناية عن النسبة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٦) بناء على الراجح من جعل الكاف أصلية لا زائدة وحيث أن يكون كناية عن نفى مثله تعالى ، إذ لو كان له مثل لكان هو سبحانه : مثل مثله ، والله سبحانه موجود قطعاً ، فنفي مثل المثل حيث يؤدي إلى نفيه سبحانه وهو باطل .

وحيث لا فرق بين قولك : " ليس كالله شيء " وقولك : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ إلا ماتعطيه الكناية من فائدتها ، وهي المبالغة في نفى المماثلة عن ذاته تعالى ... وذلك هو شأن الكناية دائماً .

(١) الأنفال : ١٦ .

(٢) المدثر : ٤ .

(٣) القمر : ١٣ .

(٤) الصافات : ٤٩ .

(٥) الزعفران : ١٨ .

(٦) الشورى : ١١ .

السر في عظمة الكناية وجاها في القرآن الكريم

إنك إذا تأملت الأسلوب الكنائي في القرآن - وكنت من أرباب الفصاحة والبيان - أدركت أنه فوق طاقة بنى الإنسان ، وأنه فيه من روعة التعبير ، وجمال التصوير ، وألوان الأدب والتهذيب مالا يستقل به بيان ، ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن ، وأنه ينطوى تحته لطائف وأسرار ، لا يصل إلى مكنونها إلا من منع ذوقا رقيقا ، يدرك ما احتجب خلف الأستار من الأسرار ، وأن فيه من السحر الخلال ما يبهير المهرة من صناع الكلام ومن هنا تظهر عظمة الأسلوب الكنائي في القرآن ، ويتضح جماله الخلاب ، وحسنه الفتان ، وتأثيره الذي لا يدانيه تأثير ونستطيع أن نحمل السر في عظمته وجماله فيما يلي :

١- الكناية في القرآن تمتاز بالإيجاز اللطيف العجيب الذي لا يستطيع محاكاته أرباب الفصاحة والبيان من بنى الإنسان . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾^(١) لقد كنى القرآن الكريم في هذه الآية بكلمة " الحرت " عن " المعاشرة الزوجية " وهذا اللفظ فضلا عما فيه من الأدب وثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية ، وتنطوى تحته معان كثيرة تحتاج في التعبير عنها إلى آلاف الكلمات . انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه ، وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص ، وبين ذلك الثبت الذي يخرج الحرت ، وذلك الثبت الذي يخرج الزوجة ، ومافى كليهما من تكثير وعمران وفلاح ، كل هذه الصور والمعاني تنطوى تحت كلمة " الحرت " التي كنى بها القرآن عن المعاشرة الزوجية^(٢) ، فهل هذه الكناية يستطيع أن يحاكيها بنو الإنسان مهما أوتوا من الفصاحة والبيان ؟ إنها حقا لا توجد إلا في القرآن ، ولا تصدر إلا عن خلق الإنسان وعلمه البيان .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ثَبِتْ يَدَ أَبِي هَبٍ وَتَبْ﴾^(٣) فهذه كناية عن أنه

(١) البقرة: ٢٢٣ .

(٢) التصوير الفني في القرآن للمرحوم سيد قطب ص ٧٨ .

(٣) المسد : ١ .

جهنمي وأن مصيره إلى اللهب . انظر إلى هذه الكناية، وما فيها من الإيجاز اللطيف العجيب الذي تحنى لعظمته جباه أساطين البيان، لقد اختصرت مقدمات لأهمية لها بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التي يتقرر فيها المصير، فلتخصت في ومضة واحدة هذا المصير الذي يراد تصويره .

٢- الكناية في القرآن تمتاز بجمال التعبير، فهي مؤدبة، مهذبة وأنها في هذا الميدان قد حازت قصب السبق، وتربعت على عرش الجمال، وعجزت عن إدراك شأوها صفوة فرسان البيان، يعد أن ذابت نفوسهم تأثراً بما فيها من الروعة والسحر الخلال :

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُمْ سَرًّا﴾^(١) فقد كنى القرآن الكريم في هذه الآية عن الجماع بالسر. تأمل هذه الكناية، ومدى ما فيها من اللطائف والأنوار والأسرار. إن في الكناية بالسر عن الجماع من ألوان الأدب والتهذيب، ما يعجز عن وصفه أساطين البيان، وفيها من جمال التعبير ما يسرق الأسماع، ويهز العواطف، ويحرك الأحاسيس والمشاعر. لقد ألبست الجماع الذي يتم في السر ثوب السر فذهبت بسر الفصاحة والبيان، أبعد هذا يقال: إن الكناية في القرآن يستطيع أن يحاكيها فرسان البيان؟ أبدأ والله إنهم من العجز بحيث لا يمكنهم فهم ما تنطوي عليه الكناية في القرآن من الأسرار^(٢) .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ^(٣) حَافِظُونَ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَالْحَافِظِينَ^(٤) غُرُوحِهِمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ فقد كنى القرآن في الآيتين^(٥) بالغروج عن العفة

(١) البقرة: ٢٣٥ .

(٢) انظر ص ١١٠ من كتابنا "الإعجاز في نظم القرآن" .

(٣) المؤمنون : ٥ .

(٤) الأحزاب: ٣٥ .

(٥) المراد بالغروج في الآيتين غروج القمصان والياباب على حد قوله تعالى "وثيابك فطهر كناية عن

العفة و نظاهرة الذيل" انظر البرهان للزركشي ج ٢ ص ٣٠٥، وبجازات القرآن للشريف الرضي ص

٣٥٣، وتأويل القرآن لابن قتيبة ص ١٠٧ .

وطهارة الذيل ، فما تنفرج ثياب المؤمنين عن ربيسة ، ولا تتكشف دروع المؤمنات عن منكر بل المؤمنون والمؤمنات تقيّة ثيابهم طاهرة أذيتهم عفيفة تقوسهم. وقوله تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾^(١)

فأحصانها فرجها كناية عن طهارة ذيلها وعفتها الكاملة، وكان النفخ في جيب درعها كما ورد في كتب التفسير.

إن في الكناية بالفروج "فروج القمصان والثياب" عن عفة النفس وطهارة الذيل من روعة التعبير ، وجمال التصوير ، وألوان الأدب والتهذيب مالا يستقل به بيان ولا يتركه إلا من تذوق حلوة القرآن.

٣- الأسلوب الكنائي في القرآن يمتاز بحسن التصوير، وقوة التأثير، فهو يوضح المعاني بالمبانيات الحسنة الساحرة، فيقرب الفكرة المجردة من الصورة الحسية فتستحيل المبالغة فيه بلاغة، ويصير التهويل فيه تخيلاً، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط، فتقعد ملوما محسوراً﴾^(٢) ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق، فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة في صورة بغضة منفرة؟ فهذه اليد التي غلت إلى العنق، لا تستطيع أن تمتد؛ وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا يستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطية، والتعبير ببسطها كل البسط ، يصور هذا البئر الذي لا يبقى من ماله على شيء كهذا الذي يبسط يده فلا يبقى بها شيء، وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قويا مؤثراً^(٣).

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه....﴾^(٤)

(١) التحريم : ١٢ .

(٢) الإسراء: ٢٩ .

(٣) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي ص ٢٢٦ .

(٤) الحجرات: ١٢ .

انظر كيف مثلت الآية الغيبة بأكل لحم الإنسان، ولكن أى إنسان؟ إنه أخ، وإن المغتاب يأكل لحم أخيه، وأى أخ هذا؟ إنه الأخ الميت الذى تنفس لحمه، وفاحت روائح، وكان للذود منه نصيب، ومن يستطيع أن يقبل على أكل لحم إنسان أخ ميت متفسخ؟

هذا الاغتياب ذكر لمساوى الناس، ومخزيق لأعراضهم، ونهش لسمعتهم وغض لفضائلهم، لافى وجوههم، ولابىن أيديهم، وإنما من وراء ظهورهم، إنه فعل الجبناء الضعفاء الذين لا يظهرون قوتهم إلا فى الخلاء، وعند فراغ الساحة من الرجال، وهؤلاء الذين يفتابون الناس مثلهم كمثل التافهين الذين ينتظرون موت الإنسان ليكون بلا عقل ولا حس ولا حياة لينهشوا لحمه، وإن كان تناء، ذلك لأنهم لم يعتادوا الأطايب فى الحياة، وإنما استساغوا الأقدار والأنتان، ألا تحس بروعة الكناية القرآنية، وجمال تصويرها، وحسن أدائها وقوة تأثيرها؟

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا^(١) النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾

فقد كنى القرآن بهذه الآية عن عدم العناد عند ظهور المعجزة، أى لاتعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة. تأمل هذه الكناية، ومدى ما فيها من جمال التعبير وروعة التصوير، وقوة التأثير، إنها عبرت عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة، وهذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفير وقوة التأثير ثم إن هذا التعبير قد أبرز لك هذا المعنى الفكرى المجرى المجرى فى صورة محسة ملموسة، ولم يقف عند هذا الحد من التحميم والنشخيص، بل تعداه إلى التصيير والتحويل فحواله إلى نار ملتهبة متأججة متوهجة. أرايت أعجب من هذا التصوير، ولا أروع وألذ من هذا التعبير^(٢)؟ إنها الكناية القرآنية تبهرك بمجملها، وتأسرك سحر بيانها، وتعجزك عن محاكاتها.

ومن هذا القيل الكناية عن الشئون الغيبية بالمفاتح فى قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ

(١) البقرة: ٢٤.

(٢) انظر ص ١٠٩ من كتابنا "الاعجاز فى نظم القرآن".

الغيب لا يعلمها إلا هو^(١) والكناية عن أزلية الأرزاق والمقدورات بالخزائن فى قوله تعالى : ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر^(٢) معلوم﴾

٤- الكناية فى القرآن تمتاز بنظمها البديع، وتأليفها الفريد، فمعناها لا يؤدى بغير لفظها، ولفظها لا يصلح إلا لمعناها، حتى لتكاد تصعب التفرقة بينهما، فلا يدرك أيهما التابع؟ وأيهما المتبوع؟ وهى من هذه الناحية، تعد من مظاهر الإعجاز فى القرآن.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وما المسيح ابن مريم^(٣) إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾ فقوله: كانا يأكلان الطعام" كناية عن "قضاء الحاجة" تأمل هذه الكناية، وما فيها من دقة التعبير، وجمال الصيغة، وبديع النظم، ثم حدثنى بريك هل يمكن أن تؤدى هذه الكناية بغير لفظها؟ وهل لفظها يصلح لغير معناها؟ أبداً والله إن الترابط بينهما وثيق، وإن الانسجام بينهما قوى، وإن التآلف بينهما محكم وعميق، فالماكول لابد من صيرورته إلى العذرة؟

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى: ﴿وأمن^(٤) ينشأ فى الحلية وهو الخصام غير مبين﴾ كناية عن "النساء" إن هذه الألفاظ القرآنية لاتصلح إلا للكتابة بها عن النساء، وإن النساء لا يكتفى عنهن فى هذا المقام إلا بهذه الألفاظ فالنساء ينشأن فى الشرف والتزين والتشغل عن النظر فى الأمور، ودقيق المعانى، أرايت أجمل من هذه الصياغة، ولأمتع من هذا التعبير، ولألذمن هذا التصوير؟

ومن هذا القبيل أيضا، الكناية بالمرادة عن طلب الجماع فى قوله تعالى: ﴿ورأودته التى هو فى يتها عن نفسه﴾^(٥) والكناية عن المعانقة باللباس فى قوله

(١) الأنعام : ٥٩ .

(٢) الحجر: ٢١ .

(٣) المائدة: ٧٥ .

(٤) الزمخرف: ١٨ .

(٥) يوسف : ٢٣ .

تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾^(١) وأنتم لباس لهم ﴿وَالْكُتَابُ عَنْ الْبُولِ وَغَسَّوهُ بِالْغَائِطِ فِي قَوْلِهِ
تعالى: ﴿ثُمَّ آوَىٰ جَاءَ أَحَدَهُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾^(٢) والكتاية عن الاستاء بالأدبار في قوله
تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾^(٣)

(١) البقرة : ١٨٧ .

(٢) النساء : ٦ .

(٣) محمد : ٢٧ .

خاتمة

لقد قمت في هذا البحث بدراسة الكناية في مؤلفات القدماء والمحدثين من علماء البيان العربي، ثم كشفت النقاب عن أسرارها البلاغية، ثم بحثت عنها في رياض القرآن الكريم، متتبعا شواهدا، مزيجا الستار عن بعض محاسنها ومقائنها، ثم أمطت اللثام عن أسباب عظمتها وجمالها في هذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ثم توصلت في نهاية المطاف إلى النتائج الآتية:-

١- عرفت الكناية كصورة بيانية عامة في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري على يد أبي عبيدة معمر بن المثنى، فقد أراد منها سر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلي .

٢- ظلت عامة، ودون تعريف يميزها عن غيرها من الصور البيانية حتى أواخر القرن الثالث الهجري .

٣- بدأت في التميز والاستقلال عن غيرها في بداية القرن الرابع الهجري على يد قدامة ابن جعفر الكاتب ، فهو أول من وضع لها تعريفا، يميزها عن غيرها من صور البيان العربي .

٤- وضحت سماتها ، وتحددت معالمها ، واستقلت عما عداها ، وظهرت محاسنها في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فقد عرفها ، وبين مزيتها على التصريح ، وكشف النقاب عن محاسنها ووضع شروطا لحسنها .

٥- تميزت تميزا تاما ، واستقلت استقلالاً كاملا ، وليست ثوبا قائما من الفلسفة والمنطق في بداية القرن السابع الهجري على يد الإمام أبي يعقوب السكاكي ، فقد عرفها، وعلل لتسميتها ، وفرق بينها وبين المجاز ، ثم ذكر أقسامها ، وأنواعها بطريقة فلسفية منطقية ، نكد الذهن ، وترهق الفكر ، ولا تتلاءم مع جمال هذه الصورة البيانية ولطافتها .

٦- ليست توبا من السحر والفتنة، واتسعت دائرة البحث فيها، فتخطت حدود اللغة العربية إلى غيرها من اللغات الأخرى كالسريانية والفارسية في النصف الأول من القرن السابع الهجري على يد الأديب الكبير ضياء الدين ابن الأثير، لقد اعتمد في دراستها على ذوقه وحسه، فأكثر من شواهد الأدبية، وخرجها تخريجاً حسناً، وحللها تحليلًا جميلًا، ولم يكتف بدراستها في اللغة العربية، كما فعل غيره من العلماء السابقين، بل تعدى هذا إلى دراستها في اللغة السريانية والفارسية.

٧- بدأ البحث عنها في القرآن الكريم في أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري على يد الأديب المصري الكبير ابن أبي الإصبع المصري فقد كشف عن قوائدها في القرآن بطريقة أدبية فريدة لم يسبق إليها، وبأسلوب يتلاءم مع طبيعتها، ويتناسب مع جمالها ولطافتها.

٨- خلعت رداء حسنيتها وجمالها، وذبلت زهرتها، وانزوى عودها، ودخلت في دائرة الفلسفة والمنطق مرة أخرى في النصف الأول من القرن الثامن الهجري على يد العلوي، فقد تتبع تعريفاتها السابقة بالنقد والتحليل معتمداً في ذلك على عقله، وثقافته المنطقية.

٩- اتسع البحث عنها في القرآن الكريم في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري على يد الزركشي، فقد كشف عن أسبابها في القرآن بأسلوب أدبي رائع، وبطريقة سهلة ميسورة، لا تكدر ذهن، ولا ترهق الفكر، وقد أكثر من شواهد القرآن، مبيناً موضع الكناية في كل شاهد منها.

١٠- لم تظهر أسرارها البلاغية بوضوح إلا في العصر الحديث، وبخاصة على يد المرحوم الشيخ علي الجارم، والأستاذ مصطفى أمين، والدكتور أحمد بدوي، والدكتور بدوي طبانة.

١١- إن القرآن الكريم قد اشتمل على معظم شواهد التقسيمات الكنائية المصطلح عليها عند المتأخرين من علماء البلاغة.

١٢- لقد لميزت الكناية في القرآن الكريم بطائفة من الخصائص كانت السر في

عظمتها، والسبب في خلودها.

هذا جهدى فى دراسة الأسلوب الكنائى قد سجلته فى هذه الصفحات ، فإن أكن قد وفقت ، فذلك الفضل من الله ، وإن كنت قد قصرت فى بعض الجوانب أوجاتبنى الصواب ؛ فأنا بشر والبشر ديدنهم التقصير ، وفى طيعهم الخطأ ، والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهه الكريم ، وأن يجعلنا من طلاب العلم العاملين ، وأن يهين لنا الأسباب الموصلة إلى تحصيله ، وأن يعيننا على استيعابه والعمل به إنه سميع مجيب وهو حسبي ونعم الوكيل؟

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

دكتور

محمود السيد شيخون

عميد كلية الدراسات الإسلامية

جامعة الأزهر

فهرس الموضوعات

٣	تمهيد
٥	مقدمه
٧	الفصل الأول : الكناية فى القديم
٥٥	الفصل الثانى : الكناية فى العصر الحديث
٦٣	الفصل الثالث: صور الأسلوب الكنائى
٧٩	الفصل الرابع : الأثر البلاغى للأسلوب الكنائى
٨٦	الفصل الخامس : الأسلوب الكنائى فى القرآن الكريم
٩٨	الخاتمة: أثبت فيها النتائج التى انتهت إليها فى بحثى هذا
١٠٢	فهرس المراجع

فهرس المراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- أسرار البلاغة- عبد القاهر الجرجاني ط المنار سنة ١٩٤٧م
- ٣- أسس النقد الأدبي- أحمد أحمد بدوى الطبعة الثانية
- ٤- الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع الجواز- عز الدين بن عبد السلام ط الأستانة سنة ١٣١٣هـ
- ٥- الإعجاز فى نظم القرآن - الدكتور/ محمود السيد شيخون ط القاهرة سنة ١٣٩٧هـ
- ٦- الإيضاح- الخطيب القزوينى ط القاهرة سنة ١٩٥٠م
- ٧- البديع- ابن المعتز ط القاهرة سنة ١٩٤٥م
- ٨- بديع القرآن - ابن أبى الإصبع المصرى ط القاهرة سنة ١٩٥٧م
- ٩- البرهان فى علوم القرآن- الزركشى ط القاهرة سنة ١٩٥٥م
- ١٠- البلاغة الواضحة- على الجارم، ومصطفى أمين ط القاهرة سنة ١٣٨٣هـ
- ١١- البيان والتبيين- الجاحظ ط القاهرة سنة ١٩٤٨م
- ١٢- تأويل مشكل القرآن- ابن قتيبة ط القاهرة سنة ١٩٥٤م
- ١٣- التبيان فى علوم القرآن- محمد الصابونى ط بيروت سنة ١٩٦٤م
- ١٤- تحرير التحرير- ابن أبى الإصبع المصرى ط القاهرة سنة ١٩٦٤م
- ١٥- التصوير الفنى فى القرآن- المرجوم سيد قطب ط القاهرة سنة ١٩٦٦م
- ١٦- الجامع الكبير- ضياء الدين ابن الأثير- ط بغداد سنة ١٩٥٦م
- ١٧- جواهر الكتز- نجم الدين ابن الأثير الحلبي ط القاهرة تحقيق الدكتور زغلول سلام
- ١٨- جواهر البلاغة- أحمد الهاشمى: ط القاهرة سنة ١٩٤٠م
- ١٩- حزانة الأدب- ابن حجة الحموى: ط القاهرة سنة ١٩٠٤م
- ٢٠- دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني: ط القاهرة سنة ١٣٣١هـ
- ٢١- سر القصاحة- ابن سنان الحفاجى: ط القاهرة سنة ١٣٥٠هـ
- ٢٢- الصاحبى- ابن فارس: ط القاهرة سنة ١٩١٠م

-
- ٢٣- الصنائعيتين- أبو هلال العسكري: ط القاهرة سنة ١٩٥٢م
٢٤- الطراز- يحيى العلوى- ط المقتطف سنة ١٩١٤م
٢٥- علم البيان- الدكتور بدوى طبانة: ط القاهرة سنة ١٩٦٢م
٢٦- علوم البلاغة- أحمد المراغى: ط القاهرة سنة ١٩١٧م
٢٧- العمدة- ابن رشيق: ط القاهرة سنة ١٣٠٧م
٢٨- الكامل- المبرد: ط القاهرة سنة ١٣٢٣هـ
٢٩- لسان العرب- ابن منظور- ط القاهرة سنة ١٣٠٧هـ
٣٠- التل السائر- ابن الأثير ط. القاهرة ١٩٦٣م.
٣١- مجاز القرآن- أبو عبيدة معمر بن المثنى : ط الخانجي سنة ١٩٥٤م
٣٢- مختار الصحاح- الرازى- ط القاهرة سنة ١٩٢٢م
٣٣- مفتاح العلوم- السكاكى- ط القاهرة سنة ١٣١٧هـ
٣٤- من بلاغة القرآن- المرحوم الدكتور أحمد بدوى: ط القاهرة سنة ١٩٥٠م
٣٥- نقد الشعر- قدامة بن جعفر الكاتب: ط الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ
٣٦- نهاية الأرب- النويرى: ط دار الكتب المصرية.
٣٧- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز - الرازى: ط القاهرة سنة ١٣٢٧هـ
٣٨- الوسيلة الأدبية- حسين المرصفى: ط القاهرة سنة ١٢٨٩هـ

